دراسة

د. حسن الصباريني

ثمامة أمام محكمة التاريخ

مكتبة

ثُمَامَة أمام محكمة التاريخ

ثُمَامَة أمام محكمة التاريخ (دراسة)

د. حسن محمد الصبّاريني (كاتب وباحث أردني)

الطبعة العربية الأولى 2022.

© حقوق الطبع محفوظة بموجب عقد 2022.

الآن ناشرون وموزعون

المدير العام: د. باسم الزعبي

الأردن، عمّان، شارع الملكة رانيا، مجمع المفلح التجاري (87)، ط1. هاتف: 797162720، 65620722 (962+)
alaan.publish@gmail.com،
alaanpublishers.com

تصميم الغلاف: بسام حمدان

مكتبة
t.me/soramnqraa

ISBN:978-9923-13-486-3

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(1504/ 3/ 2022)

813.03

صباريني، حسن محمد سعيد

ثمامة أمام محكمة التاريخ / حسن محمد سعيد صباريني عمان: الآن ناشرون وموزعون، 2022

(128) ص

ر. إ: 1504/ 3/ 2022

الواصفات: التراجم الذاتية/ / الأدباء العرب/ / الأدب العربي/ / التاريخ الأدبي

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى

د. حسن محمد الصبّاريني

ثُمَامَة أمام محكمة التاريخ

مكتبة
t.me/soramnqraa

دراسة

أمام محكمة التاريخ يحتار القاضي في إصدار الحكم، لشحّ الروايات، وتضارب الشهادات، وأمام ميزان العدالة تقف صرخة ثُمَامة المدوية في سجنه الانفرادي:

«جهد البلاء عالم يجري عليه حكم جاهل»، لتعيد النظر، لعلها تكون محاولة للإنصاف.

الإهداء

إلى كلّ من ينشد الحقيقة

د. حسن الصباريني

بين يديّ الكتاب

الحمد الله الذي وفقني بإتمام كتابي (ثُمَامة أَمَام محكمة التاريخ) بعد عمل شاق استوجب الصبر والحذر والبعد عن الميل، والبحث بروح علمية صادقة، مستندًا إلى روايات محققّة مدقّقة، وعدم التسليم بأقوال بعض الرواة والمؤرخين التي تحوي ما لا يحتمل القبول. ضرب ابن خلدون في مقدمته أمثلة متعددة من الحكايات المدخولة للمؤرخين وما ينقلونه، كرواية معاقرة الخليفة الرشيد للخمر، واقتران سُكْره بِسُكر النُّدْمان، يقول ابن خلدون: فحاشا لله ما علمنا عليه من سوء، وأين هذا من حال الرشيد وقيامه بما يجب لمنصب الخلافة من الدين والعدالة، وما كان عليه من صحبة العلماء والأولياء ومحاوراته للفضيل بن عياض، وابن السمّاك، والعُمَرِيّ، ومكاتبته سفيان الثوري، وبكائه من مواعظهم، ودعائه بمكة في طوافه، وما كان عليه من العبادة والمحافظة على أوقات الصلوات!

وما نُقل عن يحيى بن أكثم قاضي المأمون وصاحبه، من أنه كان يُعاقر الخمر. وحال ابن أكثم والمأمون من حال الرشيد، وشرابهم إنما كان النبيذ، ولم يكن محظورًا عندهم، وأما السُّكر فليس من شأنهم، وصحابته للمأمون إنما كانت خُلّة في الدِّين.

وذكر محمد كرد علي (علّامة الشام): إن مسألة التهمة في الدّين من الأمور التي شاعت في كل عصر ومصر، ويكون المتّهمون فيها في معظم الأحوال أبرياء[1].

إعادة قراءة التاريخ تقتضي الحيادية والشجاعة في سبر أغوار الروايات بعيدًا عن المؤثرات لفهم الأحداث وتفسيرها والحُكم عليها بعدالة.

---

(1) رسائل البلغاء، ص8.

أعلم أنه ليس من السهل الكتابة عن شخصية تاريخية الجدل حولها لا يزال قائمًا، فتغيير القناعات التي رسخت مما تداولته القرون أمرٌ ليس سهلًا أو مقبولًا، لذا نحتاج إلى محكمة عادلة تنظر مجددًا في تفاصيل الأحداث نَظر القضاة، خاصة بعد ظهور وثائق أو العثور على مخطوطات قديمة، فما أكثر من ظُلموا في تاريخنا ورُسمت صورتهم بوحي الخيال بعيدًا عن حقيقتها.

ومن ذلك وقع اختياري على العلاّمة ثُمَامة بن أشرس النُميريّ البصريّ المتكلّم من كبار أعلام المعتزلة، تلميذ أبي هُذيل العلّاف وأستاذ الجاحظ، وُضع على رأس الطبقة السابعة التي تُرتّب بناءً على الشهرة والأستاذية.

ما وصلنا من آراء ثُمامة الكلامية وفلسفته وأفكاره مجرد شذرات تجدها في كتب الملل والنحل والسير والأعلام التي عُرفت بتحاملها على المخالفين، أهمها كتاب (الفَرق بين الفِرق) لأبي منصور البغدادي، المعروف بشدة تعصبه ضد المعتزلة، وادعى أن ثُمامة انفرد عن سائر أسلاف المعتزلة ببدع أكفرته!

وكتاب البغدادي مصدر رئيسي لكتب متعددة نقل أصحابها ما دوّنه عن ثُمامة نقلًا حرفيًا، وهو كتاب اعتمد كليًّا على كتاب (فضيحة المعتزلة) للملحد ابن الراوندي الذي نفته المعتزلة عنها، وباعدته من مجالسها بعد أن ألحد في دينه وجحد خالقه، وألّف عدة كتب في تثبيت الإلحاد، فوضع كتاب (الفضيحة) الذي يعج بالافتراءات انتقامًا من علماء المعتزلة. وتناقلت الأجيال تلك الافتراءات حتى ظهر في القرن العشرين كتاب (الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد ما قَصَدَ به من الكذب على المسلمين والطعن عليهم).

وهو الوثيقة الأولى التي صاغتها يد معتزلية بعد حظر تاريخي طويل. ولُقب صاحبه أبو الحسين الخيّاط بمؤرخ المعتزلة الممتاز، ردّ على ابن الراوندي كلمة كلمة، وأبان فيه فكر وآراء ثُمامة. وتم أيضًا في القرن العشرين إعادة اكتشاف بعض كتب القاضي عبد الجبار آخر

علماء المعتزلة النابهين وأكثرهم إملاءً وتدريسًا، تلك الكتب أغنت كل باحث عن كافة مصادر الخصوم.

وصف القاضي حال ثُمامة بقوله: وله مذاهب لم تنتشر لقلة اختلاطه بالعامة. والسبب متفق عليه عند المؤرخين أنه كان مستشار الخليفة المأمون الخاص، الملازم لمجلسه، اختاره في هذا الموقع الهام للثقة والصداقة والتوافق الفكري. نعته المفكر والفيلسوف محمد عابد الجابري بمستشار المأمون المكلّف بـ (أمن الدولة) بحسب تعبيرنا المعاصر. وهو منصب رفيع يفوق كل المناصب الرسمية، وموقع في غاية الأهمية، فهو الأقرب لرأس السلطة ويشارك في صنع القرار، وتعيين رجال الدولة، وإدارة شؤون البلاد. ذكر الأديب الدبلوماسي غازي القصيبي: المستشار المَنْصِب الذي حارت البريّة فيه!

لا تكاد تجد دولة كان حكمها قويًّا إلا وقد أُحيط بثلّة من المفكرين والسياسيين، ففي الدولة الأموية برز شيخ الشام (رجاء بن حيوة) رجل السياسة المخضرم ومستشار الخلفاء، الذي أشار على الخليفة سليمان بن عبد الملك باستخلاف عمر بن عبد العزيز ولازمه حتى وفاته.

وفي التاريخ المعاصر، كان المفكر والأكاديمي (هنري كسينجر) مستشار الأمن القومي في عهد الرئيس الأمريكي (نيكسون) والرئيس (فورد)، وكان كذلك مستشارًا للرئيسين (كيندي) و(جونسون)، ولعب دورًا هامًا في رسم وتنفيذ سياسة بلاده الخارجية، ومن أهم إنجازاته المفاوضات التي أجراها مع الفيتناميين، وأسفرت عن اتفاق لوقف إطلاق النار وإنهاء الحرب الدموية، وبعد خروجه من العمل السياسي الرسمي، أصبح مستشارًا يؤخذ رأيه في السياسة الدولية.

فالازدهار الفكري والعلمي مرتبط بالازدهار والقوة السياسية. وفي العصر العربي الذهبي؛ عهد (الرشيد والمأمون)، تذوّق العرب لذّة الحضارة، وارتقت أحوالهم، وبلغت النهضة العلمية أوجها، وجعلوا بغداد في عهدهم حاضرة الدنيا، وقِبلة الثقافة ومجتمع

العلماء. حتى صرّف العرب كلمة بغداد فقالوا: تبغدد الرجل علينا إذا تعاظم، وفيه دلالة إلى ارتفاع مكانة بغداد والبغداديين في ذاك العصر.

ذُكر من مظاهر عظمة العباسيين وعزهم الباذخ أنهم كانوا في حفلاتهم الرسمية يستوون على عرش يعلو الأرض نحو سبعة أذرع، وكانوا يتعمّمون بعمامة سوداء، ويتوشحون برداء أسود، ويقبضون بيمينهم على صولجان ذهبي.

ورُوي أن ابن العميد إذا طرأ عليه أحد من منتحلي العلم، وأراد امتحان عقله سأله عن بغداد، فإن فطن عن خواصها ونبّه على محاسنها، جعل ذلك مقدمة فضله، وعنوان عقله. ثم سأله عن الجاحظ فإن وجد عنده أثرًا بمطالعة كتبه، والاقتباس من ألفاظه، وبعض القياس بمسائله، قضى بأنه غرة شادخة في العلم.

يقول ابن المنادي: إن بغداد سُمّيت حين سُكنت مدينة السلام، فليس في الأرض مدينة على هذا الاسم غيرها، وكان بعض إخواننا إذا ذكرها يقرأ قول الله: ﴿**بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ**﴾.

ومن مناقبها التي أفردها الله بها دون سائر الدنيا شرقًا وغربًا، السجايا المرضية، والمياه العذبة الغدقة، والفواكه الكثيرة الدمثة، والأحوال الجميلة، والحذق في كل صنعة، والجمع لكل حاجة، والأمن من ظهور البِدع، والاغتباط بكثرة العلماء والمتعلمين، والفقهاء والمتفقهين، ورؤساء المتكلمين، والأنساب وفنون الآداب، وحضور كل طرفة، واجتماع ثمار الأزمنة في زمن واحد، لا يوجد ذلك في بلد من مدن الدنيا إلا بها.

عاش ثُمامة تلك الأجواء بكل ما فيها، وكان خصيصًا بالخليفة المأمون، ملازمًا مجلسه كما قال: (وكنت لا أنصرف من عنده)، وقال يومًا للوزير أحمد بن أبي خالد الأحول في حضرة المأمون: (إن معنايَ في الدار والحاجة إليَّ لبيّنة، أُشاور في مثلك هل تصلح لموضعك، أم لا تصلح). والوزير الأحول هو اختيار ثُمامة. وأشار أيضًا بتعيين يحيى بن أكثم في منصب القضاء، قال يحيى لثُمامة مقرًّا بفضله: يا أبا معن، أنا صنيعتك وابن عمك.

ومن الاستشارات الهامة التي قدمها ثُمامة للمأمون ترشيحه لجعفر بن محمد من بني عامر للتفاوض مع نصر بن شبث الثائر على الدولة والرافض لخلافة المأمون.

في الكتاب دراسة لسيرة ثُمامة الشخصية والسياسية والفكرية تم عرضها بتسلسل منهجي، بدأته بأصله ونسبه وأهم ما قيل عنه من قبل كبار الأعلام، وجمع ما توفر من شعره الذي ارتبط بحوادث تاريخية، وذكر عناوين تصانيفه التي لم تصل إلينا. ونقض ما ذكره البغدادي وابن الجوزي حول حادثة وفاته لضعف الرواية.

تحدثت عن فكره وآرائه الكلامية والفلسفية التي حولها جدل كبير، وتوسعت في حياته السياسية ووجوده في بلاط الخلافة، واتصاله بالخلفاء، وعلاقته المضطربة مع الخليفة الرشيد، ودوره التاريخي الهام في عهد المأمون.

وتحدثت عن نوادره التي ذكرها الجاحظ في كتبه، وتناثرت في كتب الطرائف والمُلح واسعة الانتشار في تراثنا، وأرى أن الكثير منها نسبت لثُمامة زورًا رغم تمتعه بروح الدعابة، وامتلاكه حس الفكاهة.

وأخيرًا تحدثت عن الشبهات التي لازمته، وتم ردها بالتحليل والأدلة.

أُدرك أن ما علق في أذهان القرّاء مما تداولته الكُتب من الصعب إزالته بصفحات محدودة، لكنني آمل أن يكون كتابي نموذجًا وفتحًا لباب عسى أن يلج فيه كل باحث عن الحقيقة، آمن من أعماقه بتراثنا العريق، وتاريخنا الفكري المُشع، وفضل أعلامنا وإنجازاتهم مقتنعًا بمقولة (إميل زولا): إن أخرست الحقيقة ودفنتها تحت الأرض فسوف تنمو وتُنبت.

وبقول الشاعر المنافح عن كبار أهل العلم:

لا تعجبوا لمن رمى أهل العلوم الَبرَرة

فما يضرّ شامخًا رميته بِبَعرة

والله من وراء المقصد

السيرة الشخصية

فهذا ثُمامة بن أشرس، وهو عربيٌّ لا يُتَّهم في الإخبار عنهم.

(الجاحظ)

أصله ونسبه

(..، 213هـ:..، 828م)[1] العلامة أبو معن النُميري البصري المُتكلّم، من رؤوس المعتزلة[2]. وعلى رأس الطبقة السابعة[3]، لم يُعرف تاريخ ميلاده، ذكر المؤرخون تاريخ وفاته 213هـ. وثُمامة اسم عربي، جاء في لسان العرب: الثُّمام شجر، واحِدَتُه ثُمامة، والثمام: نبت ضعيف له خوص أو شبيه بالخوص، وربما حُشِيَ به وسدّ به خَصاصُ البيوت، وفيه قالت العرب: هو على طرف الثُّمام؛ أي ممكنٌ لا مُحال[4].

ويحمل ذات الاسم الصحابي ثُمامة بن أثال الحنفي سيد أهل اليمامة، وأول معتمر في الإسلام[5].

ذكر صاحب الفهرست أنه من بني نمير[6]، بينما يقول البغدادي[7] والإسفراييني إنه كان من مواليهم[8].

مما قيل عنه

الجاحظ: وما علمت أنه كان في زمانه قرويّ ولا بَلديّ، كان بلغ من حُسن الإفهام مع قلة عدد الحروف، ولا من سهولة المخرج مع السلامة من التكلّف، ما كان بلغَه. وكان لفظه في وزن إشارته، ومعناه في طبقة لفظه، ولم يكن لفظه إلى سمعك بأسرع من معناه إلى قلبك[9].

---

(1) الأعلام، ج2، ص 100.
(2) سير أعلام النبلاء، ص1274.
(3) طبقات المعتزلة، ص 62.
(4) لسان العرب، ص 508.
(5) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ص 107- 108.
(6) الفهرست، ص 207.
(7) الفرق بين الفِرق، ص 173؛ الملل والنحل ص 123.
(8) التبصير في الدين، ص 74.
(9) البيان والتبيين، ج1، ص 111.

قال بعض الكتّاب: معاني ثُمامة الظاهرة في ألفاظه، الواضحة في مخارج كلامه، كما وصف الخريميّ شعرَ نفسه في مديح أبي دلف، حيث يقول:

لـــه كَلـــمٌ فيـــك معقولـــة إزاء القلـوب كركـب وُقـوفِ[1]

ابن قتيبة: كان ثُمامة من رقة الدين، وتنقيص الإسلام، والاستهزاء به، وإرسال لسانه: على من لا يكون على مثله رجل يعرف الله ولا يُؤمن به[2].

ابن النديم: من جلة المُتكلّمين من المعتزلة، كاتب بليغ[3].

القاضي عبد الجبار: كان عظيم القدر في الفصاحة والبلاغة وحُسن الإفهام، وله مذاهب لم تنتشر لقلة اختلاطه بالعامّة، ولمّا توفّر في خدمة الخلفاء صار يوجد في كلامه بعض الهزل مما لا تأويل له، ليجعله طريقًا إلى ميلهم إليه، يوصله إلى المعونة في الدين[4].

الصفدي: كان جامعًا بين سخافة الدين والخلاعة، وانفرد عن أصحابه المعتزلة بمسائل[5].

الذهبي: من رؤوس المعتزلة القائلين بخلق القرآن، وكان نديمًا ظريفًا صاحب مُلح، روى عنه تلميذه الجاحظ[6].

ابن المرتضى: كان واحد دهره في العلم والأدب، وكان جَدِلًا حاذقًا[7].

العسقلاني: من كبار المعتزلة، ومن رؤوس الضلالة، وكان ذا نوادر ومُلح[8].

---

(1)المرجع نفسه.

(2) لسان الميزان،ج2، ص 399.

(3) الفهرست، ص 207.

(4) فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، ص 256- 258.

(5)الوافي بالوفيات، ج11، ص 16.

(6) سير أعلام النبلاء، ص 1274.

(7) طبقات المعتزلة، ص 63.

(8) لسان الميزان، ج2، ص 398.

أحمد أمين: لون آخر من ألوان الاعتزال، ليس بالزاهد، ولكن المعتزلي المغامر في شؤون الدنيا، المتردد على قصور الخلفاء، المنادم لهم، الذي يزين مجالسهم بالكلام العذب في الأدب، والمناظرة في مسائل الاعتزال وغير الاعتزال، فقد ملئت كتب الأدب بأحاديثه الممتعة، ونوادره الطريفة[1].

الزركلي: من كبار المعتزلة، وأحد الفصحاء البلغاء المقدّمين، وكان ذا نوادر ومُلح، من تلاميذه الجاحظ[2].

دائرة المعارف الإسلامية: من المُتكلّمين، وهو إمام أهل الفكر الحر في العصر العباسي الأول، وقد استدعاه كل من الخليفتين هارون والمأمون على بلاطهما لسعة علمه، ورجاحة عقله، وكان فريد عصره في العلم والمعرفة، وخصمًا في النقاش يُخشى بأسه[3].

هنري لاووست[4]: فيلسوف مغرم بالحياة، وأديب لامع يتسابق الناس إلى مجالسه، ويروي عنه الأدباء كلماته البليغة[5].

شعره: لا تجد في بطون الكتب إلا أبيات قليلة مؤثرة ارتبطت بحادثة أو حالة.

جاء في العقد الفريد: دخل رجل من الحسبانية على المأمون، فقال لثُمامة بن أشرس: كلِّمه، فقال له:

ما تقول؟ وما مذهبك؟ فقال: أقول إن الأشياء كلها على التوَهّم والحسبان، وإنما يدرك منها الناس على قدر عقولهم، ولا حقّ في الحقيقة، فقام إليه ثُمامة فلطمه لطمة سوّدت وجهه. فقال: يا أمير المؤمنين، يُفعَل بي مثل هذا في مجلسك؟ فقال له ثُمامة:

---

(1) ضحى الإسلام، ص 801.

(2) الأعلام، ج2، ص 100.

(3) الدائرة الثانية، ج10، ص 342- 343.

(4) مستشرق فرنسي، من أهم آثاره: الانشقاقات في الإسلام، السياسة عند الغزالي، بحث في آراء ابن تيمية الاجتماعية والسياسية.

(5) المعتزلة والفكر الحر، ص 250.

وما فعلت بك: قال لطمتني، قال: ولعل إنما دهنتك بالبان. ثم أنشأ يقول:

ولعـــــل آدم أمُّنـــــا ... والأب حـــوّا في الحســـابْ
ولعـــلّ مـــا أبصَـــرْتَ مـــن ... بـيض الطيـور هـو الغـرابْ
وعســاك حـين قعـدت قمـــ ... ـت وحين جئت هو الذهابْ
وعســـى البنفســـج زنبقًـــا ... وعسـى البهـار هـو السّـذابْ[1]

وجاء في ربيع الأبرار ونصوص الأخبار للزمخشري: حبس الخليفة هارون الرشيد ثُمامة بسبب البرامكة، فكتب إليه من الحبس:

عبـد مقـر ومـولى سُسْتَ نعمتَـهُ ... بما يحدّث عنه البدو والحضرُ
أوقرتـــهَ نعمًـــا أتبعتهـــا نعمـــا ... طوارِفًـا تَلـدًا في النـاس تشـتهرُ
ولم تزل طاعتي بالغيب ظاهرةً ... مـا شـابها سـاعة غـش ولا غيـرُ
فإن عفـوتَ فشيء كنـت أعهـده ... أو انتصـرت فمـن مـولاك تنتصرُ[2]

وجاء في تاريخ مدينة دمشق: قال ثُمامة بن أشرس:

بت ليلة عند جعفر البرمكي، فانتبهت ببكائه فقلت: ما يبكيك. لا أبكى الله عينيك؟ قال: رأيت في منامي كأن شيخًا قد أتاني، فأخذ بعضادتي باب البيت الذي أنا فيه، فقال:

كأن لم يكن بين الحُجون إلى الصفا ... أنـيس ولـم يسـهر بمكّـة سـامرُ

فقلت مجيبًا:

بلـــى نحـــن كنّـــا أهلهـــا فأزالنـــا ... صُـروف الليـالي والجـدود العـواثِرُ[3]

قال: فلما رأيته على هذه الحال انصرفت إلى منزلي، فلما أصبحت غدوت إلى دار السلطان، فإذا بجثته على الجسر، وإذا خلق كثير حولها.

---

(1) العقد الفريد، ج 2، ص 248.

(2) ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، ج 2، ص 114- 115؛ الفهرست، ص 208.

(3) الشعر لعمرو بن الحارث بن مضاض الجرهمي، قاله حين أجلتهم خزاعة عن مكة.

فقلت: ما هذا، فقالوا: وجّه السلطان إلى جعفر بن يحيى في الليل مَن ضَربَ عنقه، وقد أمر بصلبه. فمضيت لحاجتي ورجعت، فإذا هو مصلوب فقلت:

في آل برمك للورى عظة ... لو كان يُعمَل فيهم الفكرُ
منحتهم الدنيا خزائنها ... واختصّهم بصفائه الدهرُ
حتى إذا بلغوا السها شرفًا ... حقًا وقصّر عنهم الفخرُ
عزّ الزمان بهم فجعفرهم ... بعد الحجاب محلّه الجسرُ!
وتمزقوا من بين مصطلمٍ ... ومكبّل قد ضمّه الأسرُ[1]

تصانيفه

لم تذكر إلا بالفهرست وتعدّ من المفقودات:

الحجة، الخصوص، العموم في الوعيد، المعارف وهو المعرفة، جميع من قال بالمخلوق، الرد على المشبهة، المخلوق على المجبرة، نعيم أهل الجنة، السنن[2].

وفاته

ذكر المؤرخون تاريخ وفاته 213هـ، وذكرت بعض الروايات أنه اختلف في تاريخ وفاته بين سنتي 213 و227هـ أو 232[3].

وجاء في المنتظم لابن الجوزي: قال أبو منصور عبد القاهر بن طاهر التميمي: قتل ثُمامة بن أشرس النُميري وهو زعيم المعتزلة بين الصفا والمروة من أجل سعيه في دم أبي أحمد الخزاعي، قتله بنو خزاعة[4].

---

(1) تاريخ مدينة دمشق، ج72، ص 185.
(2) الفهرست، ص 208.
(3) فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، ص 255.
(4) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ص 255- 256.

كان أحمد بن نصر من وجهاء بغداد، يخالف من يقول بخلق القرآن ويبسط لسانه فيهم، ولا يتورع في مجلسه عن التهجم على الخليفة الواثق. وتجمع حوله كل من ينكر القول بخلق القرآن من أهل بغداد نظرًا لمكانته وأخذه برأيهم، فحملوه على الحركة لإنكار ذلك القول، وبايعوه، وعينوا ليلة لخروجهم، وجمعوا الناس، ووزعوا الدراهم عليهم، ولكن أمرهم افتضح قبل ظهورهم، وأُلقي القبض على أحمد بن نصر وسيق إلى الواثق في سامراء مقيدًا سنة 231هـ[1].

وذكر أن السبب في خروج ابن نصر أساسه الخلاف بينه وبين أحمد بن أبي داود، فقد قصده ابن نصر في بعض الأمور فرده خائبًا، فانصرف ذامًّا له، وجعل يبسط لسانه فيه، ويشهد عليه بالكفر. فمال إليه قوم وهم لا يشكّون أن ذلك غضبٌ للدين[2].

وذكر البغدادي في الفَرق بين الفِرق:

ذكر صاحب تاريخ المراوزة، أن ثُمامة بن أشرس سعى إلى الواثق بأحمد بن نصر المروزي، وذكر له أنه يكفّر من ينكر رؤية الله تعالى، ومن يقول بخلق القرآن فاعتصم المعتصم ببدعة القدرية فقتله ثم ندم على قتله، وعاتب ثُمامة، وابن داود، وابن الزيّات في ذلك؛ وكانوا أشاروا عليه بقتله. فقال له ابن الزيات: وإن لم يكن قتله صوابًا قتلني الله تعالى بين الماء والنار. وقال ابن داود: حبسني الله في جلدي إن لم يكن قتله صوابًا. وقال ثُمامة: سلط الله تعالى عليّ السيوف إن لم تكن أنت مصيبًا في قتله. فاستجاب الله دعاء كل واحد منهم في نفسه. أما ابن الزيات فإنه دخل الحمام وسقط في أتونه فمات بين الماء والنار. وأما ابن داود فإن المتوكل حبسه فأصابه في حبسه الفالج فبقي في جلده محبوسًا بالفالج إلى أن مات. وأما ثُمامة فإنه خرج إلى مكة فرآه الخزاعيون بين الصفا والمروة فنادى رجل منهم فقال: يا آل خزاعة هذا الذي سعى بصاحبكم أحمد بن نصر، وسعى في دمه، فاجتمع عليه

(1) تاريخ الأمم والملوك، الطبري، ج 11، ص 15- 17.
(2) تاريخ اليعقوبي، ج2، ص 589.

بنو خزاعة بسيوفهم حتى قتلوه. ثم أخرجوا جيفته من الحرم فأكلته السباع خارجًا من الحرم[1].

وخالف ابن حجر العسقلاني رواية ابن الجوزي والبغدادي قائلًا:

وفيها تناقض، لأن قتل أحمد بن نصر تأخر بعد ذلك بدهر طويل، فإنه قُتل في خلافة الواثق سنة بضع وعشرين، وكيف يقتل قاتِلُهُ سنة ثلاث عشرة، والصواب أنه مات في سنة ثلاث عشرة. ودلّت هذه القصة على أن ابن الجوزي حاطبُ ليلٍ لا يَنْقُدُ ما يُحدِّثُ به[2] ورواية البغدادي في الفِرق ضعيفة.

(1) الفَرق بين الفِرق، ص104-105.

(2) لسان الميزان، ج2، ص 399- 400.

الآراء الكلامية

وكان عظيم القدْرِ في الفَصَاحَةِ والبلاغة وحُسنِ الإفْهام.

(القاضي عبد الجبّار)

يُعدّ ثُمامة من كبار المعتزلة، ومن أشهر رجال زمانهم، تم تصنيفه في أول الطبقة السابعة التي انتسب إليها كبار أعلام المعتزلة الذين من أهمهم: الجاحظ، الشحّام، الأسواري، الجعفران: جعفر بن حرب وجعفر بن مبشّر، الإسكافي.

وللمعتزلة مبادئ يشتركون فيها جميعًا، ومبادئ خاصة ببعض رؤسائهم. يقول أبو الحسين الخيّاط (مؤرخ المعتزلة الممتاز): ليس يستحق أحد اسم الاعتزال حتى يجمع القول بالأصول الخمسة: التوحيد والعدل والوعد والوعيد والمنزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فإذا كملت هذه الخصال الخمس فهو معتزلي. ولم تظهر مدرسة المعتزلة وتتخذ طابعًا مستقلًا إلا على يد واصل به عطاء وعمرو بن عبيد اللذين اعتزلا مجلس الحسن البصري لاختلافهما معه في مكانة مرتكب الكبيرة.

وأهم ما تميزت به مدرسة المعتزلة بعدها عن الجمود، ومواكبة كل مستجدات الحياة الفكرية والعلمية، واستندوا إلى أدوات اجتهادية خاصة بهم، وأسسوا فلسفة مستقلة ترتبط بالدين. وأبدعوا في مقالات الوجود والطبيعة. وكان لهم الموقع الريادي في عهد (المأمون والمعتصم والواثق) فقد نالوا الدعم والمساندة، وأتاحت لهم أجواء الحرية الفكرية الانفتاح على الثقافات والحضارات الأخرى والتفاعل مع المجتمع وإقامة المناظرات مع مختلف التيارات الفكرية والمذهبية، فجادلوا المجوس والدهرية والثنوية والسمنية وسائر أهل البدع وأعداء الدين.

وكان الخيّاط يفاخر رد المعتزلة على المخالفين من الدهرية: (وهل على الأرض أحد رد الدهرية سوى المعتزلة).

وفي عهد المتوكل تم قمع المعتزلة واضطهادهم، وفي العهد البويهي تلقوا الدعم من الصاحب بن عباد حتى جاء (يمين الدولة) محمود بن سبكتكين فقام بنفيهم وإحراق كتبهم، وفي عام 408هـ ظهر ما عرف بالوثيقة القادرية زمن الخليفة القادر بالله، ساهمت تلك الوثيقة بشكل حاسم في منع انتشار فكر المعتزلة.

تستند مدرسة المعتزلة إلى جذور فكرية حقيقية في الدين، مرت بمراحل تاريخية ومؤثرات عديدة، وناهضت كثيرًا مما كان سائدًا، مستخدمة أدوات ومعادلات تعود إلى مبادئهم وأصولهم. أشارت بعض المصادر والمراجع إلى أن تفرع وانقسام أعلام المعتزلة لمدارس عدة تنسب إلى صاحبها مثل: (الواصلية، الهذلية، الجاحظية، الثمامية)، هو وصف غير دقيق، فالاختلافات هي في مسائل فرعية لم ترقَ إلى الانقسام، وقاعدتهم التي يسيرون عليها أن كل مكلّف مطالب بما يؤدي إليه اجتهاده باستخدام أدوات المذهب، لذلك اختلف التلميذ مع أستاذه (النّظام خالف أستاذه العلّاف)، ذكر العلّاف[1]: يا قوم إنّ النّظام معي على جادة واحدة لا ينحرف أحدنا عنها، إلّا بقدر ما يراه صاحبه فيذكره انحرافه، ويحمله على سننه فأمرنا يقرب.

واختلفَ الابن مع أبيه (أبو هاشم الجُبّائي خالف أباه أبا علي في الكثير من المسائل والمقالات). وليس خلافُ التابع للمتبوع بِمُستَنْكَر، فقد خالف أصحاب أبي حنيفة أبا حنيفة.

ومن أبرز أعلام المعتزلة المتأخرين القاضي عبد الجبار الهمذاني (قاضي القضاة)، وأبو القاسم جار الله الزمخشري (إمام اللغة وسلطان المفسرين) صاحب الكشّاف.

وأشهر الأسماء التي سمى بها المعتزلة أنفسهم: (أهل العدل والتوحيد) أطلقوه ورضوا به اسما، أما (المعتزلة) فَفُرِض عليهم ولزمهم فاضطروا إلى قبوله، وراحوا يدافعون عنه ويثبتون فضله.

ويسمون[2] (لسان الكلام)، و(العدلية)، وقيل: إن المعتزلة ينظرون إلى جميع المذاهب كما تنظر ملائكة السماء إلى أهل الأرض، ولهم في معرفة المقالات والمذاهب المبتدعات

(1) الإمتاع والمؤانسة، ج2، ص90.

(2) الحور العين، ص 206.

تحصيل عظيم، وحفظ عجيب، وغوص بعيد، ينقدون المذاهب كما تنقد الصيارفة الدنانير والدراهم.

نشأ الاعتزال في البيئة البصرية، وظلت البصرة مركزًا لحركة الاعتزال، حتى قامت العاصمة بغداد وازدهرت واستقر بعض رجال المدرسة فيها، وعلى رأسهم بشر بن المعتمر مؤسس فرع الاعتزال في بغداد وأستاذ ثُمامة.

والأرجح أن ثُمامة أصله من البصرة كما أشار الخطيب البغدادي بقوله: أحد المعتزلة البصريين، ورد بغداد[1].

وأكّد ابن أبي الحديد: «فقال قدماء البصريين كأبي عثمان عمرو بن عبيد، وأبي إسحاق إبراهيم بن سيّار النّظام، وأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، وأبي معن ثُمامة بن أشرس»[2]. وذكر النسفّي: وكذا ثُمامة بن أشرس النُميري تلميذ النّظام[3].

وذكرت بعض الروايات أنّ ثُمامة كان أستاذا للجاحظ الذي يذكره دائمًا في كتبه، (قال لي ثُمامة). (حكى ثُمامة) وتأثر به تأثرًا كبيرًا.

ورغم أصوله البصرية، غالبية المصادر اعتبرته من أعلام وأساتذة بغداد، والخلاف بين المدرستين لا يتجاوز الجزئيات، حتى ضمن نطاق المدرسة الواحدة تجد بعض الاختلاف في قضايا السياسة والعلم والنواحي الفلسفية للمدرسة، وتجمعهم القواسم المشتركة التي تنطلق من الأصول الخمسة.

ولثُمامة آراء كلامية وفلسفية متناثرة في كتب الملل والنحل أثارت سخطًا وجدلًا تاريخيًّا، فأدخلته دائرة الاتهام، وتم تصنيفه مع أصحاب الأهواء والبدع.

وكان الحديث عن المعتزلة في المصادر القديمة وبعض الدراسات الحديثة يحمل طابع الهجوم، نتيجة الاعتماد في دراسة المعتزلة على كتب خصومهم من الأشاعرة كالبغدادي

(1) تاريخ مدينة السلام، ج8، ص 20.

(2) شرح نهج البلاغة، ج1، ص 3.

(3) تبصرة الأدلة في أصول الدين، ص 438.

والشهرستاني وغيرهما لسهولة الرجوع إليها، والملاحظ على الكتابين (الفَرق بين الفِرق والملل والنحل) أن أحدهما يعتمد على الآخر.

يقول الفخر الرازي: كتاب (الملل والنحل) للشهرستاني كتاب فيه مذاهب أهل العالم بزعمه، إلا أنه غير معتمد عليه لأنه نقل المذاهب الإسلامية من كتاب أبي منصور البغدادي (الفَرق بين الفِرق)، وهو شديد التعصب على المخالفين، فلا يكاد ينقل مذهبهم على الوجه، ثم إن الشهرستاني نقل مذاهب الفِرق الإسلامية من ذلك الكتاب، فلهذا السبب وقع الخلل في نقل هذه المذاهب[1].

وانتقد العلاّمة ضياء الدين المَقْبِلي في كتابه (العلم الشامخ في إيثار الحق على الآباء والمشايخ ويليه الأرواح النوافخ لآثار إيثار الآباء والمشايخ) من ينقل مذهب المعتزلة من كتب الأشاعرة بأنه حصل الغلط عليهم في بعض كلامهم، وذكر أن هذا كثير الوقوع في حكاية المذاهب.

وقال أيضًا: علم من المختلفين في العقائد اتباع الهوى وقبول المثالب من دون تثبت، ذكر ذلك في نقده على الذهبي في قوله عن الجاحظ أنه باقعة قليل دين، قال هو أجلُّ من ذلك وإن تحامل عليه مخالفوه في العقائد، فلا يصدقون عليه، وأصحابه المعتزلة أخبر به، فهو من المعتزلة من جلّة العلماء، وعند الجميع مقدم الأذكياء الحكماء.

وقال أيضًا: وقد صار كل من الفرق يحكي الشر عن مخالفه ويكتم الخير، بل يروي الكذب والبهت[2].

والمعروف أن البغدادي يعتمد كليًا على كتاب (فضيحة المعتزلة) الذي كتبه الملحد ابن الراوندي[3]. وكتابه جاء للرد على كتاب الجاحظ (فضيلة المعتزلة).

---

(1) دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية، ص 112.

(2) تاريخ الجهمية والمعتزلة، ص 32- 33.

(3) أبو الحسن أحمد بن إسحق الراوندي، تنقل بين عدة مذاهب، أثّر فيه أبو عيسى الورّاق الملحد، فهجر الإسلام إلى الإلحاد، من أهم كتبه: الزمرد، الدامق، فضيحة المعتزلة.

وكان لثُمامة نصيب كبير من التشويه والتشنيع، حتى ظهر الكتاب الأهم في تاريخ المعتزلة (الانتصار والردّ على ابن الراوندي الملحد ما قصد به من الكذب على المسلمين والطعن عليهم). لمؤرخ المعتزلة أبي الحسين الخيّاط الذي تولى رئاسة المعتزلة في بغداد حتى نهاية القرن الثالث الهجري، وحفل كتابه بدفاعات عن أصحابه وبيان مآثرهم، وأظهر فضلهم في الدفاع عن الدين ضد المخالفين، وحمايتهم لمبدأ التوحيد، وإظهار الحقائق ورد كل الطعون التي جاءت في كتاب الفضيحة. يروي الدكتور محمد رياض قصة حزينة عن كتاب الانتصار: تم منع الكتاب من التداول ومصادرة نسخه من قبل السلطات العباسية التي كانت قد شنت حملة شعواء ضد المعتزلة في أواخر القرن الرابع الهجري، وقام أحد فقهاء الحديث بوضع ختم على غلاف مخطوطة لكتاب الانتصار يقضي بتحريم قراءة وتداول الكتاب، ثم تم التحفظ على هذه النسخة الوحيدة الباقية، وانتقلت ملكية هذه النسخة عبر القرون لتصل في بداية القرن العشرين الميلادي إلى شيخ دمشقي هو الشيخ طاهر الجزائري. حاول المستشرق السويدي (هنريك صامويل)[1] تحقيق النسخة المختومة بختم التحريم عام (1925م) في دمشق وطباعتها، فلم توافق أي من دور النشر في الشام على نشر المخطوطة خوفًا من لعنة ختم التحريم الموجود على الصفحة الأولى من الكتاب. قام صامويل بالاشتراك مع مالك النسخة الدمشقي الشيخ طاهر الجزائري بنقل المخطوطة إلى القاهرة ونجح في إقناع إحدى دور النشر (دار الكتب المصرية) بطباعتها، إلا أن الدار اشترطت عدم الإشارة إلى ختم التحريم الموجود على الصفحة الرئيسية[2].

ظهور الانتصار المتأخر في القرن العشرين كان الرد القاطع على كل الشبهات التي أثارها خصوم أعلام المعتزلة، ورد الاعتبار لهم.

---

(1) هنريك صامويل نيبرج، مستشرق سويدي عضو في الأكاديمية الملكية السويدية للآداب والتاريخ والآثار، من آثاره كتاب عن محيي الدين بن عربي، وآخر عن المعتزلة.

(2) pulpit.alwatanvoice.com .

الآراء الكلامية لثُمامة

ذكر ابن النديم في الفهرست عناوين كتب لثُمامة، لم تظهر وعدّت من المفقودات.

الآراء الكلامية وغيرها التي نسبت لثُمامة تم تداولها من كتب السير والأعلام والملل والنحل، ويلاحظ النقل والتكرار، وأصل الروايات كتابا (الفَرق بين الفِرق، والملل والنحل) لعبد القاهر البغدادي والشهرستاني.

1. خلق العالم

ذكر الشهرستاني: وحكى ابن الراوندي عنه أنه قال: العالم فِعل الله بطباعه، ولعله أراد بذلك ما تريده الفلاسفة من الإيجاب بالذات دون الإيجاب على مقتضى الإرادة، لكنه يلزمه على اعتقاده ذلك ما لزم الفلاسفة من القول بقدم العالم[1].

ذكر الخيّاط: من حكى هذا القول عن ثُمامة! أو ليس كتب ثُمامة معروفة وقوله مشهورًا؟ وهل المطبوع عند ثُمامة إلا الأجسام المعتملة المحدثة؟ فأما القديم فليس بجسم، فسبحانه وتعالى عن ذلك علوّا كبيرًا. وشيء آخر هو أن المطبوع على أفعاله عند أصحاب فعل الطباع هو الذي لا يكون منه إلا جنس واحد من الأفعال، كالنار التي لا يكون منها إلا التسخين، والثلج الذي لا يكون منه إلا التبريد. وأما من تكون منه الأشياء المختلفة فهو المختار لأفعاله لا المطبوع عليها.

ثم إني أعلمك أن المعتزلة قد غاظت هذا الماجن ويقصد (ابن الراوندي) بنصبها للملحدين، وإفسادها لمذاهبهم، ووضعها الكتب عليهم، فأراد أن يكذب عليها وينحلها ما ليس من قولها ويشنّع عليها بما لم يقله أحد منهم، ليفهم الجهّال ومن لا علم له بالكلام أن أقاويلهم شنعة ومذاهبهم فاسدة. فأما أهل العلم بالكلام فعارفون بأقاويل المعتزلة وبراءة

(1) الملل والنحل، ج1، ص 71.

ساحتها مما قرفها به هذا الماجن الفاضح لنفسه على لسانه[1].

2. الماهية

الماهية عند المنطقيين ما به يجاب عن السؤال بما هو، وعند الفلاسفة والمُتكلّمين بمعنى ما به الشيء هو.

وتطلق الماهية غالبًا على الأمر المتعقَّل، فتقديرها في الأذهان لا في الأعيان (ابن تيمية). وقد اهتم الفلاسفة القدامى منذ أرسطو وحتى فلاسفة العرب وعلماء اللاهوت في العصور الوسطى بالعلاقة بين الوجود والماهية. وفلاسفة العرب فصلوا بين الماهية والوجود لما ينطوي عليه التوحيد بينهما من تعارض مع فكرة الخلق في الإسلام، فالله يعلم بماهية الأشياء قبل إيجادها، وعلى هذا كانت الماهية سابقة للوجود عندهم على خلاف أرسطو[2].

ذكر (ابن الراوندي) في كتابه أن ثُمامة كان يقول بالماهية، والمقصود أن تكون لله ماهية، وأن يتمثل الخالق عز وجل على صورة ما. ذكر ابن نباتة معنى الماهية: ما يحصل في الذهن من صورة كلية مطابقة له بعد حذف المشخّصات عنه إن كان جزئيًا[3].

أشار أبو الحسن الأشعري: أجمعت المعتزلة على إنكار القول بالماهيّة، وأن لله ماهيّة لا يعلمها العباد، وقال: اعتقاد ذلك في الله سبحانه خطأ وباطل[4].

ذكر الخيّاط:

ولعمري أن القول بالماهية كفر عند المعتزلة، وثُمامة مِن أبرَأ الناس من القول بها، وقد كذب عليه في قرفه إياه بها ويقصد (ابن الراوندي)[5].

---

(1) الانتصار، ص 22- 23.

(2) الموسوعة العربية، ج17، ص 591.

(3) سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون، ج1، ص 264.

(4) مقالات الإسلاميين، ج1، ص 280.

(5) الانتصار، ص 87.

3. المعارف كلها ضرورية

ذكر البغدادي أن ثُمامة انفرد عن سائر أسلاف المعتزلة. أنه لما شاركه أصحاب المعارف في دعواهم أن المعارف ضرورية زعم أن من لم يضطره الله تعالى إلى معرفته لم يكن مأمورًا بالمعرفة ولا منهيًا عن الكفر، وكان مخلوقًا للسخرة، والاعتبار فحسب كسائر الحيوانات التي ليست بمكلفة، وزعم لأجل ذلك أن عوام الدهرية، والنصارى، والزنادقة يصيرون في الآخرة ترابًا، وزعم أن الآخرة إنما هي دار ثواب أو عقاب وليس فيها لمن مات طفلًا، ولا لمن لا يعرف الله تعالى بالضرورة طاعة يستحقون بها ثوابًا، ولا معصية يستحقون عليها عقابًا، فيصيرون حينئذ ترابًا إذا لم يكن لهم حظ في ثواب ولا عقاب[1].

وذكر الإسفراييني:

زاد ثُمامة على أسلافه من المعتزلة: أن المعارف ضرورية كما تقول الجاحظية. وكان يقول: إن من لم يعرف الله سبحانه وتعالى ضرورة ليس عليه أمر ولا نهي، وعوام الدهرية والزنادقة في الآخرة لا تكون في جنة ولا نار، وأن الله يجعلهم ترابًا، وكذلك فيمن مات في حال الطفولية[2].

وذكر ابن حزم:

ذُكر عن ثُمامة أنه يزعم: أن المقلدين من اليهود والنصارى والمجوس، وعبّاد الأوثان لا يدخلون النار يوم القيامة لكن يصيرون ترابًا[3].

وذكر الإيجي:

قال ثُمامة: المعرفة متولدة من النظر، وأنها واجبة قبل الشرع، واليهود والنصارى والمجوس والزنادقة يصيرون ترابًا لا يدخلون جنة ولا نارًا، وكذا البهائم والأطفال، ومن

---

(1) الفَرق بين الفِرق، ص 103.

(2) التبصير في الدين، ص 74.

(3) الفصل في الملل والأهواء والنحل، ص 62.

لم يعلم خالقه من الكفار معذور، والمعارف كلها ضرورية[1].

وذكر ابن القيّم الجوزية:

إنهم يكونون يوم القيامة ترابًا، حكاه أرباب المقالات عن ثُمامة بن أشرس، وهذا قول لعله اخترعه من تلقاء نفسه، فلا يعرف عن أحد من السلف، وكأن قائله رأى أنهم لا ثواب لهم ولا عقاب، فألحقهم بالبهائم[2].

ذكر الخيّاط:

ثم قال الماجن الكذاب (ابن الراوندي): وزعم ثُمامة أن أكثر اليهود والنصارى والمجوس والزنادقة والدهرية، ونساء أهل القبلة وعوامهم وأطفال المؤمنين والبنين بأسرهم يصيرون ترابًا، ولا يدخل اليهود والنصارى وسائر من عددنا من الكافرين ولا الأطفال وعوام أهل الإسلام الجنة. وهذا كذب على ثُمامة.

اليهود والنصارى وجميع الكفار عند ثُمامة في النار (خالدين فيها أبدا) والكفار عند ثُمامة هم العارفون بما أُمروا به ونُهوا عنه، القاصدون إلى الكفر بالله والمعصية له، فمن كان كذلك فهو كافر، فأما من لم يقصد إلى المعصية لله فليس بكافر عنده، وكيف يقول ثُمامة بما حكاه صاحب الكتاب عنه، وقد وجد الله لعن اليهود والنصارى في غير موضع من كتابه؟ ولكنه كان يزعم أن هذا الاسم إنما يلزم القائل به بعد المعرفة، فأما من قال به وليس معه معرفة فلا حجة عليه، ولا يسميه يهوديًا ولا نصرانيًا ولا كافرًا، ولم يكن يقف على واحد ممن يُظهر اليهودية فيقول: «هذا ليس بيهودي» بل يحكم على كل من أظهر شيئًا من الكفر بحكم ما أظهره ويعتقد بقلبه، إن كان قال بعد المعرفة.

وكان يقول: كما حكم لمن أظهر الإسلام بأنه مسلم ولمن اعتقد بقلبه إن كان باطنه كظاهره فهو مؤمن، وإن بخلاف ظاهره فليس بمؤمن.

---

(1) المواقف، ج3، ص 656.

(2) أحكام أهل الذمة، ص 1135.

وأما ما حكى عنه أنه كان يزعم أن نساء أهل القبلة وأطفالهم وأطفال المؤمنين يصيرون يوم القيامة ترابًا، فكذب وباطل: لم يقله ثُمامة ولا كان من مذهبه.

ثم قال (ابن الراوندي): وكان يزعم أن مكة والمدينة والكوفة والبصرة وسائر دور الإسلام دار كفر، وأهلها عنده كفار مشركون.

رد الخيّاط:

قد حكيت عن ثُمامة فيما تقدّم من كتابك أنه كان يزعم أن اليهود والنصارى والمجوس يصيرون يوم القيامة ترابًا، ومعناك في ذلك لأنهم غير عارفين ولا قاصدين لله إلى معصية على العمد لها؛ فزال عنهم بذلك عند ثُمامة اسم الكفر، وزال عنهم الوعيد بزوال اسم الكفر عنهم، لأن الحكم بالوعيد تابع للاسم عند ثُمامة.

ثم حكيت عنه في هذا الموضع أنه كان يزعم أن مكة والمدينة والكوفة والبصرة دار كفر وأهلها كفار مشركون: أفتُرى ثُمامة لم يكن معه من المعرفة بالكلام ألا يناقض هذه المناقضة المكشوفة، وكان لا أقلّ عنده من أن يحكم لأهل مكة والمدينة والكوفة والبصرة بمثل ما حكم لليهود والنصارى والمجوس في زوال اسم الكفر عنهم الموجب عليهم حكم الوعيد؟ وكيف خص أهل الملّة بأن حكم عليهم بالاعتماد للمعصية حتى أكفرهم وألحقهم الوعيد دون اليهود والنصارى والمجوس؟ وهذا يدل على جهلك بقول المعتزلة، واعتمادك للكذب عليها والبهت لها بما ليس من قولها. وقول ثُمامة في الدار قوله وقول إخوانه من المعتزلة: إنها دار إيمان وإسلام وإن أهلها مؤمنون مسلمون.

وختم الخيّاط كلامه:

ثم إن الماجن السفيه (ابن الراوندي) حكى عن ثُمامة شيئًا كان هو الماجن يُعرف به، وعوقب عليه مرارًا فلم يتركه حتى أهلكه الله وصيّره إلى عذاب أليم. ولولا صيانتي لهذا الكتاب عن ذكره لذكرته[1].

(1) الانتصار، ص 86- 88.

4. التولّد

ذكر البغدادي: من بدع ثُمامة قوله بأن الأفعال المتولدة أفعال لا فاعل لها، وهذه الضلالة تجر إلى إنكار صانع العالم؛ لأنه لو صح وجود فعل بلا فاعل، لصح وجود كل فعل بلا فاعل. ولم يكن حينئذٍ في الأفعال دلالة على فاعلها، ولا كان في حدوث العالم دلالة على صانعه كما لو أجاز إنسان وجود كتابة لا من كاتب، ووجود مبنى أو منسوخ لا من بانٍ أو ناسخ. ويقال له: إذا كان كلام الإنسان عندك متولدًا ولا فاعل له عندك فلِمَ تلوم الإنسان على كذبه وعلى كلمة الكفر؟ وهو عندك غير فاعل للكذب ولا لكلمة الكفر[1].

وذكر الشهرستاني:

وانفرد عن أصحابه بمسائل: منها قوله: إن الأفعال المتولدة لا فاعل لها، إذ لم يمكنه إضافتها إلى فاعل أسبابها حتى يلزمه أن يضيف الفعل إلى ميت، مثل إذا فعل السبب ومات ووجد المتولد بعده، ولم يمكنه إضافتها إلى الله تعالى، لأنه يؤدي إلى فعل القبيح، وذلك محال فتحيّر فيه وقال المتولدات أفعال لا فاعل لها[2].

وضّح رشيد الخيّون:

كما نرى أن التفسيرين يشيران إلى أن ثُمامة أنكر قدرة الله على الفعل من وجهة أُولى هي نفي فعل القبيح عن الله؛ ومن وجهة ثانية تأكيد مسؤولية الإنسان عن أفعاله، وما يتعلق بالأشياء فعل الطبيعة التي جبلها الله عليها، حيث تتغيّر وتتبدل بأسبابها. لكن تفسير الشهرستاني جاء أقل عصبية من البغدادي المعروف بشدة تعصبه ضد المعتزلة، وإن كان هو على حق في ما يذهب إليه من وجهة نظره التي ينسب وفقها كل فعل إلى الله مباشرة[3].

---

(1) الفَرق بين الفِرق، ص 103.

(2) الملل والنحل، ج1، ص 71.

(3) مذهب المعتزلة من الكلام إلى الفلسفة، ص 222.

والتعريف الشائع للتولدّ نُقل من الإسكافي:

كل فعل يتهيأ وقوعه على الخطأ، دون القصد إليه، والإرادة له، فهو متولد، وكل فعل لا يتهيأ إلا بقصد ويحتاج كل جزء منه إلى تجديد عزم وقصد إليه، وإرادة له فهو خارج عن حد التولد، داخل في حد المباشر[1].

ويعدُ أبو هذيل العلاّف من أوائل الباحثين في مسألة التولد، وذهب إلى القول: إن كل ما تولّد عن فعله (أي الإنسان) مما يعلم كيفيته فهو فعله، وذلك كالألم الحادث عن الضرب، أما اللذة والألوان والطعوم والأراييح والحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة والجبن والشجاعة والجوع والشبع والإدراك والعلم الحادث في غيره عند فعله فذلك أجمع من عند الله. ومعنى ذلك أن الإنسان يبقى هو سبب الأفعال التي يقوم بأسبابها ويحدثها في نفسه حتى بعد فنائه. ودليلنا على ذلك أن إنسانًا لو رمى إنسانًا آخر بسهم ثم مات قبل وصول السهم إلى المرمى حيث آلمه وقتله، فإن ذلك لا يمنع كون القتل الحاصل بعد فناء الرامي هو فعل له بعد فنائه. فهو يحدث الألم والقتل الحادث بعد حال موته بالسبب الذي أحدثه وهو حي، وكذلك لو عدم لكان يفعل في غيره وهو معدوم لسبب كان منه وهو حي[2].

يلاحظ أن هناك اختلافًا في كيفية إضافة الأفعال إلى فاعلها. المحكي عن الجاحظ وثُمامة: لا فعل للعبد إلا ما يحل قلبه من الإرادة، ونُقل عن ثُمامة: ما عدا الإرادة حدثًا لا محدث له. وجعل الجاحظ: ما عداها مما يقع طباعًا، وأنه لا يقع باختياره إلا الإرادة[3].

هناك تأكيد أن ثُمامة انفرد بالقول عن التولّد: حدث لا محدث له[4].

---

(1) أبو جعفر الإسكافي وآراؤه الكلامية والفلسفية، ص 133.

(2) أبو هذيل العلاّف المعتزلي وآراؤه الكلامية والفلسفية، ص95.

(3) المجموع في المحيط بالتكليف، ص 400.

(4) القلائد في تصحيح العقائد، ص 95.

رد القاضي عبد الجبار على ثُمامة:

الحق أن قول ثُمامة بوجود أفعال لا فاعل لها أمر غريب، ولعله كان يقصد من نفيه نسبة الأفعال المتولدة إلى الله أو الإنسان أن ينسبها إلى فعل الطبيعة أو الطبع، إلا أنه لم يصرح بذلك كما صرح الجاحظ والنّظام.

والقاضي يتحدث على ظاهر كلام ثُمامة وهو إثبات المتولدات لا فاعل لها.

وكان رأي ثُمامة في الواقع نتيجة لحيرة وقلق شديدين، فقد لاحظ أن في الأفعال ما يحصل نتيجة بعد موت الفاعل، فاستنكر أن تنسب إلى هذا الفاعل، وأن يستحق عليها الذم والعقاب. فَشُبَه ثُمامة إذن ترجع إلى اثنتين رئيسيتين:

- القول بأن الإصابة بعدم وجود الرمي فعل الرامي يؤدي إلى أن يكون الفاعل فاعلًا، وهو ميت، أو يكون فاعلًا بعد عجزه وذهاب القدرة عنه.

رد القاضي على ثُمامة: لا بد من الفصل بين حقيقة الفاعل وتعلقه بفعله وبين النتيجة الحاصلة، فحقيقة الفاعل لا تعني أكثر من الذي وجد الفعل منه لا من سواه. ووجود الفعل منه لا يحتاج إلى أكثر من وجود الإرادة والقدرة وتحقق الدواعي فيه إلى القيام بهذا الفعل، فإذا كان الأمر كذلك فإنه سينسب إليه لا محالة.

- ظن ثُمامة بأنه يترتب على القول بالتولد أن يستحق الواحد منا الذم والعقاب بعد موته، ولم يستحقها في حياته، لأنه مات قبل أن يصل الفعل إلى نتيجته.

رد ورأي القاضي عبد الجبار: إن استحقاق الذم والعقاب على الإنسان يكون على النتيجة في الحال الذي وقع منه السبب الذي يؤدي إليها، وهكذا فإنه لا يخرج من الدنيا إلا وهو مستحق للذم والعقاب، إذ إنه فعل الفعل الأول الذي سيؤدي إلى الفعل المتولد لا محالة، ولا يكون استحقاق العقوبة قد ترتب عليه بعد موته[1].

(1) نظرية التكليف آراء القاضي عبد الجبار الكلامية، ص 426- 427.

(التولّد) من أكثر الآراء الكلامية لثُمامة تم استنكارها. فظاهر كلامه فيه شبهة، فهو لم يصرح ولم ينسب الأفعال المتولدة إلى فعل الطبيعة أو الطبع. ونقاش القاضي عبد الجبار وإن كان فيه نقد لثُمامة؛ فقد فسر المقصد وأزال الشبهة. وقول ثُمامة في التولد يرتبط بمسألة: (أن إنسانًا لو رمى إنسانًا آخر بسهم ثم مات قبل وصول السهم إلى المرمى حيث آلمه وقتله، فإنّ ذلك لا يمنع كون القتل الحاصل بعد فناء الرامي هو فعل له بعد فنائه)، رغم التباين في مسألة التولد عند المعتزلة، إلا أنهم أجمعوا أن الأعمال الإرادية تختلف جوهريًا عن الأفعال الطبيعية وعن أفعال الجسم، وأن العمل الإرادي خاص بالإنسان فقط؛ إذ إنه حائز على العقل، وهو نور طبيعي يرشده فيما يقرر وينفذ[1].

5. تفضيل الإمام علي

اختلف الباحثون – قدماء ومحدثين- في تحديد الوقت الذي ظهر فيه التشيّع في الإسلام. والزمن الذي حددوه لظهور هذه الفكرة يتفاوت بين بداية الإسلام وبعد مقتل الإمام علي، ويرى المرحومان الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء – من أبرز مجتهدي الشيعة المتأخرين – والأستاذ أحمد أمين، أن التشيّع قد ظهر في حياة النبي عليه الصلاة والسلام نفسه. أما النوبختي (من أوائل مؤلفي الشيعة) فيرى أن ذلك حدث بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام، وكذلك فعل ابن خلدون، ثم يطالعنا رأي آخر له وزن يحدد فيه ظهور الشيعة في عهد عثمان معاصرًا ومرافقًا لرأي الخوارج. ويشارك ابن النديم برأي غريب مفاده أنه جعل التشيّع لقبًا أطلقه عليّ بنفسه على أصحابه عند خروجه بجيشه لحرب طلحة والزبير، ويرى الدكتور طه حسين أن ذلك حدث بعد مقتل عليّ، ويعلل ذلك بلفظ (شيعة) الذي أُطلِق على العراقيين والشاميين معًا في صحيفة التحكيم. ويختم الدكتور عبد العزيز الدوري هذه الآراء بتفريقه بين التشيّع باعتباره عقيدة روحية، وباعتباره حزبًا

(1) فلسفة المعتزلة، ج2، ص 58- 59.

سياسيًا، فيؤيد رأي كاشف الغطاء فيما يتعلق بالتشيّع الروحي، وينحاز إلى رأي طه حسين فيما يتعلق بالتشيّع السياسي[1].

أما القول في الإمامة: فقال جمهور أصحاب الحديث من الأشعرية والفقهاء وجماعة الشيعة والمعتزلة وأكثر الخوارج بوجوبها فرضًا من الله تعالى[2].

اتفق الأشاعرة والمعتزلة: لم ينص النبي عليه الصلاة والسلام على إمام بعده، بل بالعقد والاختيار للإجماع يوم السقيفة[3].

وقالت المعتزلة: إن الإمامة يستحقها كل من كان قائمًا بالكتاب والسنة، فإذا اجتمع قُرشي ونَبطي وهما قائمان بالكتاب والسُّنة، ولّينا القرشي، والإمامة لا تكون إلا بإجماع الأمة واختيار ونظر[4].

وقالوا في عقد المسلمين الإمامة لأبي بكر إنهم قد أصابوا في ذلك، وإنه كان أصلحهم في ذلك الوقت بالقياس والخبر، أما القياس فإنه لما وجد أن الإنسان لا يعمد إلى الذل لرجل، ولا يتابعه في كل ما قاله إلا من ثلاث طرق: إما أن يكون رجلًا له عشيرة تعينه على استعباد أناس عنده، أو رجل مال فيذل الناس له لماله، أو دين برز فيه على الناس، فلما وجدنا أبا بكر أقلهم عشيرة وأفقرهم علمنا أنه إنما قُدم للدين. وأما الخبر فاجتماع الناس عليه ورضاهم بإمامته وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام: لم يكن الله ليجمع أمتي على ضلال. ولو كان اجتماع الناس عليه خطأ لكان في ذلك فساد الصلاة وجميع الفرائض، وإبطال القرآن، وهو الحجة لنا بعد النبي عليه السلام، وهذه علّة المعتزلة والمرجئة بأجمعهم[5].

---

(1) الصّلة بين التصّوف والتشيّع، ص 18

(2) نهاية الإقدام في علم الكلام، ص 478.

(3) القلائد في تصحيح العقائد، ص 141.

(4) فِرق الشيعة، ص 41.

(5) المرجع نفسه، ص 43.

ذكر ابن أبي الحديد: اتفق شيوخنا كافة رحمهم الله، المتقدمون منهم والمتأخرون، والبصريّون والبغداديون، على أن بيعة أبي بكر الصديق بيعة صحيحة شرعية، وأنها لم تكن عن نص، وإنما كانت بالاختيار الذي ثبت بالإجماع، وبغير الإجماع كونه طريقًا إلى الإمامة.

واختلفوا في التفضيل، فقال قدماء البصريين كأبي عثمان عمرو بن عبيد، وأبي إسحاق إبراهيم بن سيّار النّظام، وأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، وأبي معن ثُمامة بن أشرس، وأبي محمد هشام بن عمرو الفوطي، وأبي يعقوب يوسف بن عبد الله الشحّام، وجماعة غيرهم: إن أبا بكر أفضل من عليّ، وهؤلاء يجعلون ترتيب الأربعة في الفضل كترتيبهم في الخلافة.

وقال البغداديون قاطبة، قدماؤهم ومتأخروهم، كأبي سهل بشر بن المعتمر، وأبي موسى عيسى بن صبيح المردار، وأبي عبد الله جعفر بن مبشّر، وأبي جعفر الإسكافي، وأبي الحسين الخيّاط، وأبي القاسم عبد الله بن محمود البلخي وتلامذته: إن عليًا أفضل من أبي بكر.

وإلى هذا المذهب ذهب من البصريين أبو علي محمد بن عبد الوهاب الجُبّائي، كان يميل إلى التفضيل ولا يُصرّح به، وإذا صنّف ذهب إلى الوقف في تصنيفاته، وقال في كثير من تصانيفه: إن صح خبر الطائر فعليّ أفضل[1].

والجُبّائي يقصد ويشير إلى ما رواه الترمذي في باب المناقب 13 : 170، بسنده عن أنس بن مالك، ولفظه: كان عند النبي عليه الصلاة والسلام طير، فقال: «اللهم ائتني بأحب خلقك إليك، يأكل معي هذا الطير»، فجاء علي فأكل معه.

والمقصود بالتفضيل كما أشار ابن أبي الحديد: الأكثر ثوابًا والأجمع لمزايا الفضل والخلال الحميدة[2].

---

(1) شرح نهج البلاغة، ج1، ص 7.

(2) المرجع نفسه، ص 9.

تفضيل الإمام علي عند معتزلة بغداد فسّره الملطي:

إن عليًا أفضل الناس بعد رسول الله عليه الصلاة والسلام، لا يسبقه بالفضل أحد من الأمة، وزعموا أن إمامة المفضول على الفاضل جائزة لمّا ولّى النبي عليه الصلاة والسلام عمرو بن العاص على فضلاء المهاجرين والأنصار في غزوة ذات السلاسل[1].

ويرى الإسكافي وهو من رؤساء متشيعة بغداد: إننا لا ننكر فضل الصحابة وسوابقهم، ولسنا كالإمامية الذين يحملهم الهوى على جحد الأمور المعلومة، ولكننا ننكر تفضيل أحد من الصحابة على عليّ بن أبي طالب[2].

وأكّد القاضي عبد الجبار:

نقول إن الإمام بعده صلى الله عليه وسلم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي عليهم السلام، وأما الكلام في الفضل، فلا دليل نقطع به على أيهم الأفضل[3].

جاء في مناظرة مشهورة لافتة جمعت القاضي عبد الجبار (آخر علماء المعتزلة النابهين) مع الشيخ المفيد (أبرز علماء الشيعة خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين) في حديث الغدير: بينما القاضي عبد الجبار ذات يوم في مجلسه في بغداد -ومجلسه مملوء من علماء الفريقين-، إذ حضر الشيخ وجلس في صف النّعال ثم قال للقاضي: إن لي سؤالًا، فإن أجزت بحضور هؤلاء الأئمة.

فقال له القاضي: سل.

فقال: ما نقول في هذا الخبر الذي ترويه طائفة من الشيعة: من كنت مولاه فعلي مولاه، أهو مسلّم صحيح عن النبي عليه الصلاة والسلام يوم الغدير؟

فقال: نعم خبر صحيح.

فقال الشيخ: ما المراد بلفظ المولى في الخبر؟

---

(1) التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع، ص 27.

(2) أبو جعفر الإسكافي وآراؤه الكلامية والفلسفية، ص 187.

(3) الأصول الخمسة، ص 97- 98.

فقال: هو بمعنى أولى.

فقال الشيخ: فما هذا الخلاف والخصومة بين الشيعة والسنّة؟

فقال: أيها الأخ! هذه رواية وخلافة أبي بكر دراية، والعادل لا يعادل الرواية بالدراية.

فقال الشيخ: ما نقول في قول النبي عليه الصلاة والسلام لعلي حربك حربي. وسلمك سلمي؟

قال القاضي: الحديث صحيح.

فقال: ما تقول في أصحاب الجمل؟

فقال القاضي: أيها الأخ: إنهم تابوا.

فقال الشيخ: أيها القاضي! الحرب دراية، والتوبة رواية، وأنت قررت في حديث الغدير أن الرواية لا تعارض الدراية[1]!

موضع الشاهد ما قاله القاضي: هذه رواية، وخلافة أبي بكر دراية، والعادل لا يعادل الرواية بالدراية.

ورأي قاضي القضاة عبد الجبار الذي يعد من أبرز أعلام المعتزلة المتأخرين يوافق رأي واصل به عطاء مؤسس الاعتزال، ذكر المقريزي في خططه[2]: وأخذ واصل العلم عن أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية وخالفه في الإمامة.

وقد أيد واصل بن عطاء ورفيقه عمرو بن عبيد الزيدية، لأن حركة الإمام زيد بن علي (تلميذ واصل) لم تكن حركة شيعية فقط، وإنما حركة إسلامية في جوهرها، تستهدف الخروج على الإمام الظالم، ويؤيد ذلك أنه عندما كان يدعو لنفسه في ثورته كان يقول: إنه يدعو إلى كتاب الله، وسنة نبيه، وإحياء السنن، وإماتة البدع[3].

---

(1) مناظرات في الإمامة، ص 125- 126.

(2) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ص 164.

(3) عمرو بن عبيد وآراؤه الكلامية، ص 104.

ثُمامة وكبار أعلام البصريين يرون أن أبا بكر أفضل من علي، ويجعلون ترتيب الأربعة في الفضل كترتيبهم في الخلافة. وقال النّظام والجاحظ: أن الإمامة لا يستحقها إلا الأفضل، ولا يجوز صرفها إلى المفضول، وقال الباقون من المعتزلة الأفضل أولى بها، فإن عرض للأمة فتنة من عقدها للأفضل جاز لهم عقدها للمفضول[1].

وأسباب تفضيل أبي بكر:

صحبته للنبي عليه الصلاة والسلام في الغار، وظفر من النبي بلقب الصدّيق، وانفرد بالرسول في العريش يوم بدر، وقدّمه النبي عليه الصلاة والسلام في الحديبية، وسايره الرسول عليه السلام وحده يوم فتح مكة، وأُنزل فيه من القرآن ما لم يُنزل في أحد من الصحابة، وقد نال فضلًا عظيمًا بإمامته الناس في مرض النبي عليه الصلاة والسلام وكان هو إمامًا لعليّ، وكان المحكّم في موضع دفن الرسول عليه الصلاة والسلام، وهو الذي تدارك الأمة بحزمه بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام[2].

6. تحريم السبي واسترقاق الإماء

كان ثُمامة يقول: لا يجوز سبي النساء من دار الكفر، وإن من سبى امرأة ثم ألمّ بها فهو زان، وإن ولده ولد الزنا[3].

هو الرأي الفقهي الوحيد المنسوب إلى ثُمامة، واعتبر بدعة لأنه خالف فيه جمهور الفقهاء. بل جاء في زمن كانت أمم الأرض تمتهن السّبي والاسترقاق.

والإسلام لم يستحدث سبي النساء، ولكنه قنن تلك الممارسة، وجعل لها قواعد شرعية وضوابط للقضاء عليها تدريجيًّا، والعمل على تجفيف منابعها، وفي الوقت الراهن

(1) أصول الدين، ص 293- 294.

(2) العثمانية، ص 6.

(3) التبصير في الدين، ص 75.

أجمعت الأمم والدول على إلغاء هذه الظاهرة (الرقِّ والسبي) وبات رأي ثُمامة في السبي يستشهد به عند الكثير من المعاصرين.

وأرى أن هذا الرأي رغم رجاحته نُسِب إلى ثُمامة زورًا لسببين:

أولهما: المعتزلة مدرسة فكرية اهتمت بالكلام والفكر والعلم، ولم تشتغل أو تنشغل بالفقه، فاتبعوا المذاهب الفقهية السائدة في زمانهم، وأكثرهم من الأحناف، وبعضهم شافعي، يقول الخيّاط في الانتصار: إنهم أرباب النظر دون جميع الناس، وإن الكلام لهم دون سواهم.

والسبب الآخر وهو الأقوى:

ما ذكره البغدادي المعروف بشدة تعصبه ضد المعتزلة وثُمامة: في هذا الرأي إقرار على نفسه بأنه ولد زنا، لأنه كان من الموالي وكانت أمه مسبيّة، ووطء من لا يجوز سبيها على حكم السبي الحرام زنا، والمولود منه ولد زنا، فبدعة ثُمامة على هذا التقدير لائقة بنسبه[1]!

(1) الفَرق بين الفِرق، ص 104.

في بلاط الخلافة

كان والله أعلى الناس في الجد، وأحلاهم في الهزل، وكان يتصرف مع القلوب تصرف السحاب مع الجنوب.

(الخليفة المأمون)

1. العصر العربي الذهبي

مرادنا بعصر العرب الذهبي حقبة ميمونة تبلّج فجرها الزاهر منذ عهد الرشيد وابنه المأمون (170 – 218هـ/ 786 – 833م)، وانبثقت أشعتها من سماء بغداد حتى انبسطت في الأقطار العربية جمعاء من وادي دجلة والفرات في القارة الآسيوية، إلى وادي النيل والمغرب الأقصى في القارة الإفريقية إلى ديار الأندلس وصقلية في القارة الأوروبية، فأصبحت الخلافة العباسية في تلك الحقبة تحاكي دولة الرومان أيام اكتمال عزها واجتماع شملها.

ومن مظاهر عظمة العباسيين وعزهم الباذخ أنهم كانوا في حفلاتهم الرسمية يستوون على عرش يعلو الأرض نحو سبعة أذرع، وكانوا يتعممون بعمامة سوداء، ويتوشحون برداء أسود، ويقبضون بيمينهم على صولجان ذهبي.

وبفضلهم سادت اللغة العربية، وانتشرت في طول البلاد وعرضها، حتى عجز الروم غربًا، والفرس شرقًا، والسريان شمالًا، عن مصادمة تيارها.

وتذوق العرب لذة الحضارة؛ فارتقت أحوالهم ورقت طباعهم، وانسجمت عباراتهم، وشرعوا يؤسسون في كل صقع من أصقاعهم مدارس عالية، ومكتبات غنية فاخرة، فابتنوا «بيت الحكمة» ببغداد و«مدرسة طليطلة» بالأندلس، ثم شادوا «دار العلم» بالقاهرة.

ومما يجدر بالذكر أن أحد وزراء الدولة العباسية تبرع بمائتي ألف دينار لعمارة كلية علمية في بغداد، وخصص بنفقاتها حولًا بعد حول خمسة عشر ألف دينار. وقد احتشد فيها ستة آلاف طالب، لا فرق بين غنيهم وفقيرهم. وعلى هذا النمط انتشرت المدارس والمكتبات، وأضيفت إليها كتاتيب لا تُحصى بجوار الترب والجوامع، فتيسرت دواعي التثقيف والتهذيب للخاصة والعامة.

ونشطت حركة الترجمة والتأليف في هذا العصر الذهبي، وشرع العلماء يتبارون في الترجمة والتصنيف والتبييض والتسويد، حتى إنهم لم يتركوا بابًا من أبواب المعارف إلا

طرقوه، فلم يدعوا كتابًا ذا فائدة كبرى في اللغات اليونانية والفارسية والهندية والسريانية إلا درسوه ومحّصوه وأحكموا نقله إلى العربية.

ولقد بلغت النهضة العلمية أوجها في صدر الدولة العباسية بفضل المنصور والرشيد والمأمون، لأنهم جعلوا بغداد في عهدهم أم المدائن الإسلامية، وقطب دائرة الثقافة، ومجتمع العلماء والشعراء، ثم شاركتها في ذلك سائر العواصم العربية كدمشق والقاهرة والقيروان وقرطبة، على أن هذا العصر امتاز بخلفاء علماء بالغوا في تكريم أهل الأدب، فأدرّوا لهم أخلاف الرزق، وقرّبوهم وجالسوهم وآكلوهم وشاربوهم وسامروهم وساجلوهم، واعتمدوا في المشاكل على آرائهم[1].

2. مع الخليفة هارون الرشيد (149- 193هـ/ 766- 809م)

أوجز أحمد أمين وصف الخليفة الرشيد:

رجل عاطفي ذوّاق، يخضع للمؤثرات الوقتية، فيصلّي مائة ركعة كل يوم، ويحج ماشيًا، ويهيم من ناحية أخرى بالجمال والغناء، ويُحدّثه أبو العتاهية حديث الزهد فيبكي حتى تخضلَّ لحيته، ويقول له ابن أبي مريم نكتة فيضحك حتى يستلقي على قفاه، ويرضى عن البرامكة فيطلق لهم العنان، ويغضب عليهم فينكل بهم أشد النكال.

أعلى شأن الشرق في الغرب، فكلما ذُكر هارون الرشيد تخيّل الغربيون الشرق بفتنته العجيبة، وجاذبيته الساحرة، والسبب في ذلك كتاب (ألف ليلة وليلة)، وما أضفت عليه علاقته بـ(شارلمان)[2]، من فخفخة وإجلال، وتوالي الوفود منه وإليه، وحركة التجارة بين

---

(1) عصر العرب الذهبي، ص 12-15، منقول بتصرف.

(2) إمبراطور الإمبراطورية الرومانية، تواصل مع الخليفة الرشيد 798م، وتبادلا الهدايا، أرسل شارلمان للرشيد خيولًا إسبانية وكلاب صيد وعباءة فريزيان ملونة، وفي عام 802م أرسل هارون لشارلمان شمعدانات نحاسية وعطورًا وشطرنجًا عاجيًّا وخيمة ضخمة ذات ستائر ملونة، وفيلًا اسمه أبو العباس، وساعة مائية.

الشرق والغرب في أيامه، ويضاف إلى هذا كله ما رزق من حُسن حظ[1].

استُخلف الرشيد بعهدٍ من أبيه عند موت أخيه الهادي. قال الصوليّ: هذه الليلة وُلد له فيها المأمون، ولم يكن في سائر الزمان ليلة مات فيها خليفة وقام خليفة وولد خليفة إلا هذه الليلة.

وكان من أميز الخلفاء وأجل ملوك الدنيا، وكان كثير الغزو والحج، كما قال عنه أبو المعالي الكلابيّ:

فمن يطلب لقاءك أو يُرِدْهُ ... فبالحرمين أو أقصى الثغور

ففي أرض العدو على طِمرٍّ ... وفي أرض التَّرفُّهِ فوق كُور

وقال الجاحظ: اجتمع للرشيد ما لم يجتمع لغيره: وزراؤه البرامكة، وقاضيه أبو يوسف، وشاعره مروان بن أبي حفصة، ونديمه العباس بن محمد عم أبيه، وحاجبه الفضل بن الربيع أنبه الناس وأعظمهم، ومغنيه إبراهيم الموصلي، وزوجته زبيدة. وقال غيره: كانت أيام الرشيد كلها خير كأنها من حُسنها أعراس[2].

عند البحث في تاريخ وحياة ثُمامة بن أشرس نجد ذاكرة المؤرخين مسهبة في تسجيل تفاصيل حياته، ويقابلها شح في تسجيل فكره وفلسفته، والسبب أنه كان ظل الخليفة المأمون الذي لا يفارقه. والتاريخ المكتوب كما هو معروف هو تاريخ الملوك وحاشيتهم، وعدم اتصال ثُمامة بالناس أدى إلى انكماش أفكاره بينهم، فهم واسطة تداولها في الطريق أو السوق أو المسجد الجامع، فبذلك كان على خلاف معاصريه، من الذين اتسموا بغزارة أفكارهم. ويصف القاضي عبد الجبار في (فضل الاعتزال) حالة ثُمامة الفكرية هذه بقوله: «وله مذاهب لم تنتشر لقلة اختلاطه بالعامة»[3].

---

(1) هارون الرشيد، ص 7.

(2) تاريخ الخلفاء، ص 226- 229.

(3) معتزلة البصرة وبغداد، ص 184.

اتصال ثُمامة بالخليفة الرشيد

جاء في طبقات المعتزلة سبب اتصال ثُمامة بالخلفاء، وكانت البداية مع الخليفة الرشيد.

قال القاضي عن أبي الحسن في كتاب المشايخ في سبب اتصال ثُمامة بالخلفاء: إن محمد بن سليمان قطع يدي عيسى الطبري، وكان زاهدًا متكلمًا في عباد الله الصالحين، فلما بلغ ثُمامة قال: قتلني الله إن لم أقتله، وكان ثُمامة قد تفرّد بالعبادة، فاتصل بالرشيد وتمكّن منه لعلمه وفضل أدبه، إلى أن عادله في طريق مكة، فكان يملأ أذنيه علمًا وأدبًا إلى أن حجّ معه وحوله بتدبيره إلى طريق البصرة في منصرَفه، وهجم به على سلاح لمحمد بن سليمان، فكان من الرشيد ما كان[1].

حبس ثُمامة

قام الرشيد بحبس أهل علم الكلام من المعتزلة وغيرهم، وأمر بحبس ثُمامة حبسًا انفراديًا عند سجانه المعروف (سلام بن أبرش) أو (مسرور الكبير) وأمره أن يضيّق عليه، ويدخله بيتًا ويطيّن عليه، ويترك فيه ثقبًا.

وقد روى ثُمامة للخليفة المأمون ما حدث له، قال المأمون لثُمامة: ما جهد البلاء يا أبا معن؟ قال: «عَالِم يجري عليه حُكم جاهل» قال: من أين قلت هذا؟ قال: حبسني الرشيد عند «مسرور الخادم» فضيق عليّ أنفاسي، فسمعته يومًا يقرأ: ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾، بفتح الذال، فقلت له: لا تقل أيها الأمير هكذا، قل (للمكذّبين) وكسر له الذال، لأن المكذَّبين هم الأنبياء، فقال: قد كان يقال لي عنك: إنك قدري، فلا نجوتُ إن نجوتَ الليلة مني! فعانيت منه تلك الليلة الموت من شدة ما عذبني[2].

---

(1) طبقات المعتزلة، ص 67.

(2) شرح منهج البلاغة، ص 164.

وسبب الحبس موقف الخليفة الرشيد من أهل الكلام، حيث شملت حملة الاعتقال ثُمامة ومعمر بن عباد السلمي (الطبيب الفيلسوف)، وهما من كبار أعلام وشيوخ الاعتزال.

وبلغه عن بشر المريسي (الجهمي) القول بخلق القرآن، فقال: لئن ظفرت به لأضربن عنقه.

واستعطف ثُمامة الخليفة الرشيد بأبيات منها:

ولم تزل طاعتي بالغيب ظاهرةً ... ما شابها ساعة غش ولا غيرُ

فإن عفوت فشيء كنت أعهده ... أو انتصرت فمن مولاك تنتصرُ[1]

ذكرت بعض الروايات أن الخليفة الرشيد أطلق سراح من كانوا في الحبس من المعتزلة وغيرهم بعد الاستعانة بهم في مناظرة ملك السند.

قال القاضي: ولما منع الرشيد من الجدال معه، وحبس أهل علم الكلام، كتب إليه ملك السند: إنك رئيس قوم لا ينصفون ويقلدون الرجال ويغلبون بالسيف، فإن كنت على ثقة من دينك فوجه إليّ من أناظره، فإن كان الحق معك اتبعناك، وإن كان معي اتبعتني، فوجّه إليه قاضيًا، وكان عند الملك رجل من (السمنية)[2] وهو الذي حمله على هذه المكاتبة، فلما وصل القاضي إليه سأله السمني فقال: أخبرني عن معبودك هل هو القادر؟ قال نعم، قال: أفهو قادر أن يخلق مثله؟ فقال القاضي هذه المسألة من علم الكلام، وهو بدعة وأصحابنا ينكرونه، فقال السمني: من أصحابك؟ فقال: فلان وفلان وعد جماعة من الفقهاء، فقال السمني للملك: قد كنت أعلمتك دينهم وأخبرتك بجهلهم وتقليدهم وغلبتهم بالسيف، قال: فأمر ذلك الملك القاضي بالانصراف وكتب معه إلى الرشيد: إني

(1) ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، ج2، ص114-115.

(2) السمنية: أصل تسميتهم منسوب إلى «سومنات» وهي بلدة بالهند ناحية خراسان، قيل إنهم يدينون بالبوذية وقيل عبدة كواكب.

كنت بدأتك بالكتاب، وأنا على يقين مما حُكي لي عنكم، فالآن قد تيقنت ذلك بحضور القاضي.

فلما ورد الكتاب على الرشيد قامت قيامته، وضاق صدره، وقال: أليس لهذا الدين من يناضل عنه؟ قالوا: بلى يا أمير المؤمنين، هم الذين نهيتهم عن الجدال في الدين، وجماعة منهم في الحبس، فقال: أحضروهم. فلما حضروا قال: ما تقولون في هذه المسألة؟ فقال صبي من بينهم: هذا السؤال محال لأن المخلوق لا يكون إلا محدثًا، والمحدث لا يكون مثل القديم، فقد استحال أن يُقال: يقدر على أن يخلق مثله أو لا يقدر، كما استحال أن يُقال يقدر أن يكون عاجزًا أو جاهلًا[1].

وذكر صاحب الفهرست أن سجن ثُمامة كان بسبب البرامكة، فالمعروف عنه قربه من جعفر بن يحيى، ومدحه بقوله: كان جعفر بن يحيى أنطق الناس، قد جمع الهدوء والتمهل، والجزالة والحلاوة، وإفهامًا يغنيه عن الإعادة. ولو كان في الأرض ناطقٌ يستغني بمنطقه عن الإشارة، لاستغنى جعفر عن الإشارة، كما استغنى عن الإعادة.

وقال أيضًا: ما رأيت أحدًا كان لا يتحبَّس ولا يتوقَّف، ولا يتلجلج ولا يتنحنح، ولا يرتقب لفظًا قد استدعاه من بُعد، ولا يلتمس التخلص إلى معنى قد تعصّى عليه طلبه، أشد اقتدارًا، ولا أقل تكلفًا، من جعفر بن يحيى[2].

وجاء في تاريخ دمشق لابن عساكر: بات ثُمامة عند جعفر في آخر ليلة له قبل قتله وصلبه، وبعد أن رآه مصلوبًا قال:

عزّ الزمان بهم فجعفرهم بعد الحجاب محلّه الجسر[3]!

والبرامكة قيل إنهم كانوا من أهل (بيوتات بلخ) ممن يتولّون البهار وبيت النار، فقيل لهم البرامكة على معنى أنهم سدنة البيت وحجّابه، فأول ما ولّوا من الأعمال في أيام أبي

(1) طبقات المعتزلة، ص 54- 56.

(2) البيان والتبيين، ج1، ص 105- 106.

(3) تاريخ مدينة دمشق، ج72، ص185.

العباس، ولي الخراج خالد بن برمك، ثم صار يدور فيهم إلى أيام الخليفة الرشيد، فولي الوزارة يحيى بن خالد وولي خراسان وما دون باب بغداد مما يليها ابنه الفضل بن يحيى، وولي ابنه الآخر جعفر بن يحيى الخاتم. قال بعضهم: الوزارة برمكية لا بقي منهم بقيّة. ثم سخط عليهم هارون[1]. اختلف أصحاب السير والتواريخ في شرح ما سُمي (نكبة البرامكة)، فمن ذلك ما ذكر ثُمامة بن أشرس: أول ما أنكر يحيى بن خالد من أمره، أن محمد بن الليث رفع رسالة إلى الرشيد يعظه فيها، ويذكر أن يحيى بن خالد لا يغني عنك من الله شيئًا، وقد جعلته فيما بينك وبين الله، فكيف أنت إذا وقفت بين يديه، فسألك عما عملت في عباده وبلاده، فقلت: يا رب إني استكفيت يحيى أمور عبادك! أتراك تحتج بحجة يرضى الله بها! مع كلام فيه توبيخ وتقريع. فدعا الرشيد يحيى فقال: تعرف محمد بن الليث؟ قال: نعم قال: فأي الرجال هو؟ قال متهم على الإسلام، فأمر به فوضع في المطبق دهرًا، فلما تنكر الرشيد للبرامكة ذكره فأمر بإخراجه، قال: انتقم الله ممن ظلمك، وأخذ لك بحقك ممن بعثني عليك، قال: فقال الناس في البرامكة فأكثروا، وكان ذلك أول ما ظهر من تغيّر حالهم[2].

ويقال: إنما قتلهم الرشيد لأنه كان لا يمر ببلد ولا إقليم ولا قرية ولا بستان ولا مزرعة إلا قيل هذا لجعفر، ويقال إن البرامكة كانوا يريدون إبطال خلافة الرشيد وإظهار الزندقة. وذكر ابن الجوزي أن الرشيد سئل عن سبب قتل البرامكة فقال: لو أعلم أن قميصي يعلم ذلك لأحرقته[3].

وقال عبيد الله بن يحيى بن خاقان: سألت (مسرورًا الكبير) – خادم الرشيد – في أيام المتوكل، وكان قد عمّر إليها، ومات فيها، عن سبب قتل الرشيد لجعفر، وإيقاعه بالبرامكة؛ فقال: كأنك تريد ما تقوله العامة فيما ادعوه من أمر المرأة، وأمر المجامر التي اتخذها

(1) البدء والتأريخ، ج6، ص 104.
(2) تاريخ الأمم والملوك، الطبري، ص 1683.
(3) البداية والنهاية، ص 189.

للبخور في الكعبة؟ فقلت له، ما أردت غيره، فقال: لا والله، ما لشيء من هذا أصل، ولكنه من ملل موالينا وحسدهم[1].

وقيل إن الرشيد ما كان يصبر عن أخته العبّاسة، ولا عن جعفر بن يحيى، فقال له: أزوّجكها حتى يحل بك النظر إليها، ثم لا تقربها فكانا يجتمعان وهما شابان، ثم يقوم الرشيد عنهما ويخلوان بأنفسهما، وولدت ولدين وكتمت الأمر في ذلك حتى علم الرشيد، فكان ذلك سبب نكبة البرامكة[2].

رواية العباسة وجعفر تناقلتها كتب التاريخ والأدب فكتب جرجي زيدان رواية بعنوان (العباسة أخت الرشيد)، وهي واحدة من سلسلة الروايات التاريخية، جمع في سردها بين منطق الرواية التاريخية القائم على الخيال وبناء الشخصيات وتفاصيل المشهد، وبين منطق المادة التاريخية، ذكر جرجي زيدان في الفصل الخامس والخمسين من روايته تحت عنوان (كشف السر): فقال (أرجوان) -الخادم- للخليفة الرشيد وصوته يتلجلج: «إن جعفرًا قد تزوج أختك العباسة منذ سبع سنين، وولدت منه ثلاثة بنين، أحدهم له ست سنوات، والآخر له خمس سنوات، والثالث عاش سنتين ومات قريبًا، والاثنان الباقيان قد أرسلهما إلى مدينة الرسول، وهي حامل بالرابع، واختنق صوته»[3].

ويرى ابن خلدون أن حكاية العباسة وجعفر من الحكايات المدخولة للمؤرخين، يقول: وهيهات ذلك من منصب العبّاسة في دينها وأبويها وجلالها، وأنها بنت عبد الله بن عباس، ليس بينها وبينه إلا أربعة رجال هم أشراف الدين وعظماء الملّة من بعده. كيف تلحم نسبها بجعفر بن يحيى وتدنس شرفها العربي بمولى من موالي العجم، أو بولاء جدّها من عمومة الرسول وأشراف قريش، وإنما نكبة البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة

(1) الوزراء والكتّاب، ص 254.
(2) الفخري في الآداب السلطانية، ص 209.
(3) العباسة أخت الرشيد، ص 209.

واحتجانهم[1] أموال الجباية، حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه، فغلبوه على أمره، وشاركوه في سلطانه[2].

وقد عزا ابن الجوزي والطبري سبب سجن ثُمامة الانفرادي عام 186هـ، لوقوفه على كذبه في أمر (أحمد بن عيسى بن زيد) الملقب بـ (المُختفي)، لأنه خرج أيام الرشيد فحبس وخلص واختفى إلى أن مات في البصرة[3].

ذكر ابن تغري: سجن الرشيد ثُمامة لأنه وقف منه على شيء من إعانة أحمد بن عيسى[4].

ويقول الأصفهاني: إنه وُشي إلى هارون الرشيد بأحمد بن عيسى، والقاسم بن علي بن عمر بن علي، فأمر بإشخاصهما إليه من الحجاز، فلما وصلا إليه أمر بحبسهما، فحبسا في سعة عند الفضل بن ربيع فكانا عنده، فاحتال بعض الزيدية فدس إليهما فالوذجًا في جامات أحدهما مبنّج، فأطعما المبنّج الموكلين، فلما علما أن ذلك بلغ فيهم خرج. ولم يزل مدة ببغداد مستترًا، وقد بلغ الرشيد خبره، فوضع الرصد في كل موضع، وأمر بتفتيش كل دار يتهم صاحبها بالتشيّع، وطلب أحمد فيها، فلم يزل ذلك دأبه حتى أمكنه التخلص، فمضى إلى البصرة وأقام فيها[5].

ونخلص إلى أن علاقة ثُمامة بالخليفة الرشيد لم تكن مستقرة، ولا يعدّ من ندمائه وبطانته وسمّارة وأغلب الروايات والنوادر لثُمامة مع الرشيد مزعومة لم تنهل من معينٍ تاريخي صاف.

بعض الروايات ذكرت أنه اتخذه نديمًا له بعد إطلاق سراحه دون أن يتأثر بمذهبه[6].

---

(1) أي اقتطاعها والتفرد بها.

(2) مقدمة ابن خلدون، ج1، ص 99- 100.

(3) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ص 110؛ تاريخ الأمم والملوك، الطبري، 8ج، ص275.

(4) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ص152.

(5) مقاتل الطّالبيين، ص619-621.

(6) المعتزلة بين القديم والحديث، ص 120.

3. مع الخليفة عبد اللّه المأمون (170هـ- 218هـ/ 786م- 833م)

عبد الله أبو العباس بن الرشيد، وأمه أم ولد اسمها (مراجل) ماتت في نفاسها به.

وكان أفضل رجال بني العباس حزمًا، وعزمًا، وحلمًا، وعلمًا، ورأيًا، ودهاء، وهيبة، وشجاعة، وسؤددًا، وسماحة، لم يل الخلافة من بني العباس أعلم منه، وكان فصيحًا مفوّهًا، وكان يقول: معاوية بعمره، وعبدالملك بحجاجه، وأنا بنفسي. وكان يُقال: لبني العباس فاتحة، وواسطة، وخاتمة، فالفاتحة السّفاح، والواسطة المأمون، والخاتمة المعتضد.

وعن الرشيد قال: إني لأعرف في عبد الله حزم المنصور، ونُسك المهدي، وعزّة الهادي، ولو شاء أن أنسبه إلى الرابع - يعني نفسه- لنسبته، وقد قدمت محمدًا (الأمين) عليه، وإني لأعلم أنه منقاد إلى هواه، مبذّر لما حوته يده، يشاركه رأيه الإماء والنساء، ولولا أم جعفر وميل بني هاشم لقدمت عبد الله (المأمون) عليه.

استقل المأمون بالأمر بعد قتل أخيه وهو بخراسان، واكتنى بأبي جعفر لأنها كنية المنصور، وكان لها في نفوسهم جلالة وتفاؤل بطول عمر من كُني بها كالمنصور والرشيد[1].

اقترن اسم المأمون بالنهضة الفكرية التي ازدهرت في العصر العباسي الأول، وقيل إنه أعلم الخلفاء بالفقه وعلم الكلام وإنه فيلسوف الخلفاء، وحكيم بني العباس[2].

كانت مجالس المأمون تعد صورة من الثراء العلمي متعدد المشارب والثقافات، خاصة في عدم إقصاء صنف من العلماء، أو منع صنف من العلوم، وكان مجلسًا للمحاورة والإفادة.

---

(1) تاريخ الخلفاء، ص 245- 246.

(2) في التاريخ العباسي والأندلسي، ص 108.

ذكر الزركلي: قال المأمون لحاجبه يومًا: انظر من بالباب من أصحاب الكلام، فخرج وعاد إليه فقال: بالباب أبو هذيل العلاّف (معتزلي)، وعبد الله بن إباض (إباضي)، وهشام بن الكلبي (رافضي)[1].

وروي أيضًا: اجتمع ستة إخوة لأبي جُعد اثنان منهما يتشيّعان، واثنان مرجئان، واثنان خارجيان، وكلهم تحت سقف واحد في مجلسه[2].

وفي عهده بلغت الموجة الحادة للترجمة أبعد غاياتها، إذ تحولت خزانة الحكمة إلى ما يشبه معهدًا علميًّا كبيرًا، وألحق بها مرصده المشهور. وهادن المأمون صاحب جزيرة قبرص، وأرسل إليه يطلب خزانة كتب اليونان، فأرسلها إليه واغتبط بها المأمون، وجعل سهيل بن هارون خازنًا لها.

وتُرجمت كتب عديدة منها «الأصول في الهندسة» لإقليدس (والمجسطي) لبطليموس، وكتب أفلاطون وأرسطوطاليس، وكان من المقربين للخليفة المأمون، وأبدع في الترجمة حنين بن إسحاق، وكان دقيقًا في الترجمة حتى قالوا إن المأمون رسم له أن يأخذ وزن ما يترجمه ذهبًا[3].

وطمحت نفس المأمون إلى إدراك الحكمة والإشراف على علوم الفلسفة ووقف علماء وقته على كتاب (المجسطي)، وفهموا صورة آلات الرصد الموصوفة فيه، وقام بجمع علماء عصره وأمرهم أن يضعوا مثل تلك الآداب وأن يقيسوا بها الكواكب ويتعرفوا منها أحوالها كما صنعه (بطليموس) ومن كان قبله، ففعلوا ذلك وتولوا الرصد بها بمدينة (الشماسيّة) من أرض الشام، فوقفوا على زمن سنة الشمس الرصدية، ومقدار ميلها وخروج مركزها وموضع أوجها، وعرفوا مع ذلك بعض أحوال باقي الكواكب من السيّارة والثابتة، ثم قطع بهم عن استيفاء غرضهم موت الخليفة المأمون، فقيدوا ما انتهوا إليه

---

(1) الأعلام، ص 61- 62.

(2) تاريخ فلاسفة الإسلام، ص 15.

(3) العصر العباسي الأول، ص 109- 112، منقول بتصرف.

وسموه (الرصد المأموني). والذي تولى ذلك يحيى بن أبي منصور كبير المنجمين، وخالد بن عبد الملك المروزي، وسند بن علي، والعباس بن سعيد الجوهري، وألف كل واحد منهم في ذلك زيجًا[1] منسوبًا إليه، فكانت أرصادهم أول أرصاد في تاريخ المسلمين[2].

هناك رواية مشهورة ذكرت في الفهرست، توضح سبب ازدهار حركة الترجمة في عهد الخليفة المأمون بشكل غير مسبوق أدى إلى تحول خزائن بيت الحكمة من مكتبة إلى معهد علمي عالمي، والاعتناء بالفلسفة على وجه الخصوص، وهي ما يُسمى (حلم المأمون بلقاء أرسطو).

رأى المأمون في منامه كأن رجلًا أبيض اللون، مشربًا بالحمرة، واسع الجبهة، مقرون الحاجب، أجلح الرأس، أشهل العينين، حسن الشمائل، جالسًا على سريره، قال المأمون: وكأني بين يديه قد ملئت له هيبة، فقلت من أنت، قال: أنا أرسطوطاليس. فسررت به وقلت: أيها الحكيم، أسألك؟ قال: سل، قلت: ما الحسن؟ قال: ما حسن في العقل. قلت: ثم ماذا؟ قال: ما حسن في الشرع. قلت: ثم ماذا؟ قال: ما حسن عند الجمهور. قلت: ثم ماذا. قال: ثُم لا ثُم![3].

عقب الطرابيشي على تلك الرواية: بديهي أننا أمام حلم مصنوع، وبصفته كذلك حلم للتفسير البعدي لا القبلي، إن يكن الحلم كاذبًا من حيث الواقعة، فهو صادق من حيث الدلالة[4].

أكد المؤرخون أن الخليفة المأمون خالف والده الرشيد، وقرّب إلى مجلسه المتكلمين وبشكل خاص المعتزلة، ولذلك كان يعبّر عن المعتزلة بقوله (أصحابنا).

---

(1) جدول تُعرف به أحوال الكواكب، ومنه يستخرج التقويم سنة سنة.

(2) طبقات الأمم، ص 50- 51.

(3) الفهرست، ص 168.

(4) هرطقات عن الديمقراطية والعلمانية والحداثة، ص 43.

يرى البعض أن من علامات ذلك سيطرة كل من ثُمامة بن أشرس وابن أبي داود على الكثير من أمور الدولة، حيث قادا حملة ضد المحدثين أدت إلى ما هو مدون في التاريخ باسم (المحنة).

والمحنة تاريخيًا ترتبط بالعديد من العلماء منذ قيام الدولة الأموية، لكن ما هو معروف ومشهور ولا يزال الجدل حوله محنة الإمام أحمد بن حنبل حول مسألة خلق القرآن، والمسألة من الناحية الكلامية البحتة ما كانت تقتضي تلك النتائج الخطيرة التي تم إثارتها في تاريخ الفكر الإسلامي بعامة وعلم الكلام بخاصة، فهي لا تزيد أهمية عن مسألة التشبيه والتجسيم أو رؤية الله تعالى يوم القيامة، ولكنها اتخذت طابعًا مثيرًا حين اختلطت بالسياسة.

ومسألة خلق القرآن ظهرت في آخر الدولة الأموية على لسان الجعد بن درهم المقتول على يد خالد القسري والي الكوفة في عهد هشام بن عبد الملك. وظلت تلك المسألة يدور حولها الجدل إلى عهد الخليفة المأمون الذي اتخذ هذه المسألة المذهب الرسمي للدولة وشعارها الثقافي، والتعبير السياسي لمعارضة الأمويين، وتشير العديد من المصادر إلى أن أبا حنيفة وبعض أصحابه كانوا يقولون بخلق القرآن، ومعلوم أن أبا حنيفة والمعتزلة وغيرهم كانوا معارضين للحكم الأموي. والمؤكد أن المأمون لم يُظهر القول بخلق القرآن في العلانية في أول الأمر، ذكرت مصادر عدة، ودراسات حديثة أن الذي فجر المحنة أصحاب الحديث لا الخليفة المأمون، فقد قال لجلسائه: «لولا مكان يزيد بن هارون لأظهرت (القرآن مخلوق). إني لا أتقيه لأنَّ له سلطانًا أو سلطنة، ولكن أخاف إن أظهرته فيرد عليّ، فيختلف الناس وتكون فتنة وأنا أكره الفتنة. ويزيد بن هارون من أشهر محدثي بغداد، وكان يكفّر من يقول بخلق القرآن.

الخلاصة

محنة خلق القرآن كانت في حقيقة الأمر عبارة عن توظيف الديني من أجل السياسي، فالصراع كان سياسيًّا، فرضها الخليفة المأمون على فقهاء عصره، لم يكن لشيوخ المعتزلة دور سلطوي فيها ما عدا انتساب قاضي القضاة أحمد بن داود إليهم، وآراء قوية أكدت أن القاضي ابن داود جهمي وليس معتزلي، وقام بتنفيذ أوامر المأمون والمعتصم ثم الواثق[1].

استقر رأي المأمون على إعلان القول بخلق القرآن 218هـ بعد وفاة ثُمامة بخمسة أعوام.

تمكن المأمون من إخماد الثورات والحركات المناهضة للحكم العباسي (ثورة أبو السرايا الشيباني، ورافع بن ليث، ونصر بن شبث، والأقباط في مصر، والزّط، وبابك الخرمي) وتحقيق الاستقرار للدولة والقضاء على الدعوات الانفصالية.

ويعد أبو هذيل العلاّف أهم شيوخ الخليفة المأمون، وصفه الملطي: وأبو الهذيل لم يدرك في أهل الجدل مثله، وهو أبوهم وأستاذهم، وكان الخلفاء الثلاثة المأمون والمعتصم والواثق يقدّمونه ويعظمونه[2].

ومن أهم النماذج البارزة في عصر المأمون:

- جبرائيل بن بختيشوع: الطبيب النسطوري، طبيب الخليفة المأمون، غمره بنعمائه واتخذه أنيسًا ونديمًا.
- أحمد بن يوسف الكاتب: الوزير المأموني ومدبِّج رسالاته.
- يحيى بن أكثم: ولاه القضاء بعد أن سأله المسألة المعروفة في الميراث بـ (المسألة المأمونية) وهي: أبوان وبنتان لم تقسم التركة حتى ماتت إحدى البنتين

(1) واحة المعتزلة، ص 42- 63، منقول بتصرف. (راجع الفصل الثاني من كتاب واحة المعتزلة / للمؤلف).

(2) التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع، ص 31.

وخلّفت من في المسألة، فقال يحيى: يا أمير المؤمنين، الميت الأول رجل أم امرأة؟، فعرف المأمون أنه قد عَرف المسألة، فقلده القضاء وكان له حظوة عنده.

- إسحق الموصلي: اشتهر بالغناء، وكان يُحسن الكثير من العلوم، يقول المأمون: لولا ما سبق لإسحاق على ألسنة الناس وشهرته عندهم بالغناء لولّيته القضاء بحضرتي، فإنه أولى به وأحق وأصدق، وأكثر دينًا وأمانة من هؤلاء القضاة[1].
- أحمد بن أبي داود: اتصل بالخليفة المأمون عن طريق يحيى بن أكثم، فكان يحضر مجالس المأمون في الجدل والمناظرة، فأعجب المأمون بعقله وحسن منطقه فقربه إليه، وأصبح ذا نفوذ كبير في قصره[2].

وعُرف المأمون أنه كان يخلو بالحكماء ويأنس بمناظراتهم، ويلتذ بمذاكرتهم علمًا منه بأنّ أهل العلم هم صفوة الله من خلقه ونخبته من عباده[3].

اتصال ثمامة بالخليفة المأمون

وفي فترة ولاية المأمون على خراسان وما يتصل بها إلى همذان، وثّق ثُمامة صلته بالمأمون وعدّ من خاصته، وأنس المأمون إليه ووثق بفكره وعلمه، وصفه فقال: كان والله أعلى الناس في الجد، وأحلاهم في الهزل، وكان يتصرف مع القلوب، تصرف السحاب مع الجنوب[4].

ولما صارت إليه الخلافة ذكّر ثُمامة الخليفة المأمون بذِمام متقدم، فقال له:

---

(1) عصر المأمون، ص 397- 432، منقول بتصرف.
(2) المنية والأمل، ص 43.
(3) تاريخ مختصر الدولة، ص 236.
(4) من غاب عنه المطرب، ص 166.

كان لي أملان: أمل لك وأمل بك، فأمّا أملي لك فقد بلغته، وأمّا أملي بك فلا أدري ما يكون منك فيه، قال المأمون: يكون أفضل ما رجوت وأمّلت، فجعله من سُمَّاره وخاصته[1].

ذكر (الخيون): من الأمور الخطيرة التي تُروى عن ثُمامة ويتفق عليها المؤرخون كافة أنه كان مستشار المأمون الخاص، يعود له بالاستشارة في تعيين أو عزل الوزراء والولاة[2].

وعدّ (الجابري) ثُمامة مستشار (أمن الدولة) بحسب تعبيرنا المعاصر[3].

وأكد (رضوان السيد) أن ثُمامة سيطر على الكثير من أمور الدولة في فترة المأمون[4].

ووصفه (كوبرسون) بصديق المأمون الثقة[5].

وذكره ابن خلكان في رواية: ولمّا عزم الفرّاء على الاتصال بالمأمون، كان يتردد إلى الباب، فبينما هو ذات يوم على الباب إذ جاء ثُمامة بن الأشرس النميري المعتزلي، (وكان خصيصًا بالمأمون)[6].

رفض الوزارة

أراد المأمون ثُمامة وزيرًا له بعد مقتل الفضل بن سهل، قال أحمد بن أبي طاهر: حدثوني عن ثُمامة قال:

لما قتل الفضل بن سهل بعث إليّ المأمون، وكنت لا أنصرف من عنده إلا أتوقعه في منزلي، ثم يأتيني رسوله في جوف الليل فآتيه، وكان قد وصلني لمكان الفضل بن سهل من

---

(1) العِقد الفريد، 2 ص 41.

(2) معتزلة البصرة وبغداد، ص39.

(3) https://www.aleqt.com/2009 .

(4 (المسائل في الخلاف بين البصريين والبغداديين، ص 9.

(5) فن السيرة في العربية.. عصر المأمون نموذجًا، ص83

(6) وفيات الأعيان، ج 6، ص 177.

الوزارة، فلما رأيته قد ألح علي في ذلك فتعاللت عليه. فقال لي: إنما أردتك لكذا وكذا. فقلت: يا أمير المؤمنين: إني لا أقوم بذلك، وأحرى أن أضن بوضعي من أمير المؤمنين وحالي أن تزول عنده فإني لم أر أحدًا تعرض للخدمة والوزارة إلا لم يكن لتسلم حاله ولا تدوم منزلته. قال له المأمون يا ثُمامة: فأشر عليّ برجل صالح لما أريد؟ فقلت: أحمد بن أبي خالد الأحول يقوم بالخدمة إلى أن يرتاد أمير المؤمنين أيده الله للموضع من يصلح له على ما فيه من الأود واللدد. قال: فدعاه المأمون فأمره بلزوم الخدمة، فلما تمكنت له الخدمة والحرمة تذمم المأمون من تنحيته[1].

وذكر عبد الوهاب بن أشرس: قال أحمد بن أبي خالد الأحول يومًا لثُمامة بحضرة المأمون يا ثُمامة: كل أحد في الدار فله معنى غيرك، فإنه لا معنى لك في دار أمير المؤمنين. فقال له ثُمامة: إن معناي في الدار والحاجة إليّ لبينة. فقال: وما الذي تصلح له؟ قال: أُشَاور في مثلك هل تصلح لموضعك أم لا تصلح. قال: فأفحم فما ردّ عليه جوابًا[2].

مثل تلك الروايات تؤكد أن ثُمامة عند المأمون فوق الوزراء، وأنه مستشاره الخاص المرافق له بدون انقطاع.

تقديم الاستشارة

واعتاد المأمون طلب الاستشارة من ثُمامة وأخذ رأيه في عدة أمور هامة ومؤثرة، نذكر منها:

- كان المأمون قد هم بلعن معاوية، وأن يكتب بذلك كتابًا يقرأ يوم الدار، وجفل الناس فأفتاه عن ذلك يحيى بن أكثم وقال: يا أمير المؤمنين: إن العامة لا تحتمل هذا، وسيما أهل خراسان ولا تأمن أن تكون لهم نفرة، وإن كانت لم تدرِ ما عاقبتها،

(1) كتاب بغداد، ص 118.

(2) كتاب بغداد، ص 125.

والرأي أن تدع الناس على ما هم عليه، ولا تظهر لهم أنك تميل إلى فرقة من الفرق فإن ذلك أصلح في السياسة وأحرى في التدبر. فركن المأمون إلى قوله فلما دخلت عليه قال يا ثُمامة: قد علمت ما كنا دبرناه في معاوية، وقد عارضنا رأيًا هو أصلح في تدبير المملكة، وأبقى ذكرًا في العامة، ثم أخبره أن ابن أكثم خوَّفه إياها، وأخبره بنفوره عن هذا الرأي.

فقال ثُمامة: يا أمير المؤمنين والعامة في هذا الموضع الذي وضعها به يحيى. والله لو وجهت إنسانًا على عاتقه سواد ومعه عصا ساق إليك بعصاه عشرين ألفًا منها، والله يا أمير المؤمنين ما رضي الله جل ثناؤه أن ساواها بالأنعام حتى جعلها أضل منها سبيلا فقال تبارك وتعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[1].

والله يا أمير المؤمنين: لقد مررت منذ أيام في شارع الخلد وأنا أريد الدار، فإذا إنسان قد بسط كساءه وألقى عليه أدوية وهو قائم ينادي عليها: هذا الدواء لبياض العين، والغشاء، والغشاوة، والظلمة، وضعف البصر، وإن إحدى عينيه لمطموسة وفي الأخرى مؤسى له والناس قد انثالوا عليه وأجفلوا إليه يستوصفونه. فنزلت عن دابتي ناحية ودخلت في غمار تلك الجماعة فقلت: يا هذا أرى عينيك أحوج هذه الأعين إلى العلاج، وأنت تصف هذا الدواء وتخبر أنه شفاء لوجع العين فلم لا تستعمله؟ فقال: أنا في هذا الموضع منذ عشر سنين ما مر بي شيخ أجهل منك. فقلت وكيف ذاك؟ قال يا جاهل: أين اشتكت عيني؟ قلت: لا أدري. قال: بمصر. قال: فأقبلت على تلك الجماعة فقالوا: صدق الرجل أنت جاهل، وهموا بي. قال: فقلت لا والله ما علمت أن عينه اشتكت بمصر. قال فما تخلصت

(1) الفرقان 44.

منهم إلا بهذه الحجة. فضحك المأمون وقال: ما لقيت منك العامة. قال: الذي لقيت من الله من سوء الثناء وقبح الذكر أكثر، قال: أجل[1].

أراد ثُمامة بهذه القصة إقناع الخليفة المأمون بعدم الاكتراث للعامة، وخالف القاضي يحيى بن أكثم في اعتراضه على إعلان لعن معاوية.

أشارت بعض الروايات تشيّع المأمون وثُمامة، والتشيّع الذي ينسب للمعتزلة في بغداد وللخليفة المأمون هو تشيّع سياسي عاطفي تأثر بالأجواء السائدة، وفي الحالة التاريخية التي عاشها أهل بغداد، وفي محبة آل البيت، تشيّعٌ معتدلٌ في موالاة الإمام علي، لا يبرؤون من أحد، ولا يتطرفون، ولا يغالون في عقيدة. وفكرة لعن معاوية التي لم تتم رغم تشجيع ثُمامة جاءت كردة فعل على قيام الأمويين بلعن الإمام علي بن أبي طالب، كما توارد في كتب التاريخ، والرواية المشهورة في صحيح مسلم[2] وسنن الترمذي[3].

عن بكير بن مسمار عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال: أمر معاوية بن أبي سفيان سعدًا فقال: ما منعك أن تسبّ أبا التراب؟ فقال: أما ذكرت ثلاثًا قالهنّ له رسول الله عليه الصلاة والسلام، فلن أسبّه. لأن تكون لي واحدة منهن أحبُّ إليّ من حُمر النعم؛ سمعت رسول الله عليه الصلاة والسلام يقول له، وخلَّفه في بعض مغازيه، فقال له علي: يا رسول الله تُخَلفّني مع النساء والصبيان! فقال له رسول الله عليه الصلاة والسلام: أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبوّة بعدي، وسمعته يقول يوم خيبر: لأعطينّ الراية رجلًا يحبُّ اللهَ ورسولَه. قال فتطاولنا لها. فقال: ادعوا لي عليًا، فأتاه وبه رمد، فبصق في عينه، فدفع الراية إليه، ففتح الله عليه، وأنزلت الآية: ﴿**فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ**﴾، دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليًا وفاطمة وحسنًا وحسينًا فقال: اللهم هؤلاء أهلي.

---

(1) كتاب بغداد، ص 54- 55.

(2) الجامع الصحيح للإمام مسلم، ص 7.

(3) الجامع الصحيح، سنن الترمذي، ج5، ص 638.

وقد تأول النووي هذا الحديث قائلًا: قول معاوية هذا ليس فيه تصريح بأنه أمر سعدًا بالسبّ وإنما سأله عن السبب المانع له، كأنه يقول: هل امتنعت تورعًا أو خوفًا أو غير ذلك، فإن كان تورعًا فأنت مصيب محسن، وإن كان غير ذلك فله جواب آخر، ولعل سعدًا قد كان في طائفة يسبّون فلم يسبّ معهم. ويحتمل تأويلًا آخر أن معناه ما منعك أن تُخَطِّئه في رأيه واجتهاده، وتظهر للناس حُسن رأينا واجتهادنا، وأنه أخطأ قوله.

وجاء في فتح الباري:

قال أحمد وإسماعيل القاضي والنسائي وأبو علي النيسابوري: لم يرد في حق أحد من الصحابة بالأسانيد الجياد أكثر ممّا جاء في عليّ، وكان السبب في ذلك أنه تأخر، ووقع الاختلاف في زمانه وخرج من خرج عليه، فكان ذلك سببًا لانتشار مناقبه من كثرة من كان من الصحابة ردًا على من خالفه، فكان الناس طائفتين، لكن المبتدعة قليلة جدًّا، ثم كان من أمر علي ما كان فنجمت طائفة أخرى حاربوه، ثم اشتد الخطب فتنقصوه واتخذوا لعنه على المنابر سنة[1].

وفي رواية أخرى استشار فيها المأمون ثُمامة: قال المأمون لثُمامة بن أشرس ألا تدلني على رجل من أهل الجزيرة له عقل وبيان ومعرفة يؤدي عني ما أوجهه به إلى نصر بن شبث؟ قال بلى يا أمير المؤمنين، فقال: رجل من بني عامر يقال له جعفر بن محمد. قال له: أحضرنيه، قال جعفر فأحضرني ثُمامة فأدخلني عليه فكلمني بكلام كثير، ثم أمرني أن أبلغه نصر بن شبث[2].

ونصر بن شبث من بني عُقيل، وكان في عنقه بيعة للأمين، فلما قُتل الأمين أظهر نصر الغضب لذلك، واجتمع عليه خلق كثير من الأعراب، وعبر الفرات إلى الجانب الشرقي، وحدثته نفسه بالتغلب على المأمون[3].

---

(1) فتح الباري، ج7، ص 57.

(2) كتاب بغداد، ص 78- 79.

(3) الكامل في التاريخ، ص 298.

وروي أن التفاوض بين المأمون ونصر بن شبث باء بالفشل، وتم حصاره في (كيسوم) شمال حلب حتى استسلم وطلب الأمان، فكتب له المأمون كتاب أمان، وانقطعت أخباره بعد دخوله بغداد[1].

وفي ذكر اتصال يحيى بن أكثم بالمأمون: بعد موت أحمد بن أبي خالد الأحول احتيج إلى من يقوم مقامه. أراد المأمون ثُمامة على اللزوم للخدمة فامتنع واعتل عليه وكره ذلك منه. قال: فأريد لي رجلًا يصلح للخدمة. قال ثُمامة: فذكرت يحيى في نفسي ولم أبد ذلك للمأمون حتى لقيت يحيى، فعقدت عليه ألا يغدر وألا ينساها لي إن حسنت به حاله، ولطفت له منزلة. فقال يحيى يا أبا معن: أنا صنيعتك وابن عمك.

فلما خصن حال يحيى ووقع بينه وبين ثُمامة ما وقع من الشر والمباينة والمحادثات عند المأمون جرى لهم من المجالس في الكلام والخلاف ما قد أثر وكتب، قال يحيى يومًا يا أمير المؤمنين: بلغني أن رجلًا يزعم أنه يفرق بين ما اختلفت فيه الأمة في حرفين. فقال ثُمامة يا أمير المؤمنين: إياي اعترى ولي في قوله غناء. نعم أنا أفرق بين ما اختلفت فيه الأمة بحرفين، إلا أني أزداد حرفًا ثالثًا لتفهمه مع الخاصة، فقال المأمون: فقل. فما أراك بخارج منها. قال يا أمير المؤمنين، لا تخلو أفعال العباد وما اختلف الناس فيه من ذلك أن تكون من الله ليس للعباد فيها صنع، أو بعضها من الله وبعضها من العباد، فإن زعم أنها من الله ليس للعباد فيها صنع كفر ونسب إلى الله كل فعل قبيح. وإن زعم أنها من الله ومن العباد جعل الخلق شركاء لله في فعل الفواحش والكفر. وإن زعم أنها من العباد ليس لله فيها صنع صار إلى ما أقوله. فما أجاب يحيى جوابًا[2].

(1) الموسوعة العربية، اطلع عليه 7 يوليو 2021.
(2) كتاب بغداد، ص 139- 140.

من مسامرات الخليفة المأمون وثُمامة

قال ثُمامة: قال لي المأمون: قد عزمت على تقريع عمّي، فحضرت فجيء بإبراهيم بن المهدي مغلولًا قد تهدّل شعرهُ على عينيه، فسلّم فقال المأمون: لا سلم الله عليك، أكفرًا بالنعمة، وخروجًا عليّ! فقال: يا أمير المؤمنين، إن القدرة تذهب الحفيظة، ومن مُدَّ له في الاغترار، هجمت به الأناة على التلف، وقد رفعك الله فوق كل ذنب، كما وضع كل ذي ذنب دونك، فإن تُعاقب، فبحقك، وإن تعفُ فبفضلك. قال: إن هذين - يعني ابنه العباس والمعتصم- يشيران بقتلك. قال: أشارا عليك بما يُشار به على مثلك في مثلي، والملكُ عقيم، ولكن تأبى لك أو تستجلب نصرًا إلا من حيث عوّدك الله، وأنا عمُّك، والعمُّ صنو الأب، وبكى. فَتَغَرْغَرت عينا المأمون، وقال: خلُّوا عن عمي، ثم أحضره ونادمه، وما زال به حتى ضرب له بالعود[1].

لا جدال على منزلة ثُمامة الثابتة عند الخليفة المأمون، ودوره الهام في تقديم المشورة، ووجوده الدائم في مجلسه كما قال ثُمامة: (وكنت لا أنصرف من عنده إلا أتوقعه في منزلي!)، ولكن الآراء تباينت حول فكر المأمون ومذهبه، وروايات قوية أكدت أن ثُمامة وراء تحول الخليفة إلى الاعتزال.

استندت الروايات إلى مكانة ثُمامة الفكرية والعلمية ومنزلته الاعتزالية. وضعه القاضي عبد الجبار على رأس الطبقة السابعة، وتم وصفه بأنه واحد دهره في العلم والأدب، وكان جدلًا حاذقًا، ومن هذه الطبقة الجاحظ العلّامة الموسوعي شيخ المتكلمين الذي جمع في عقله كل ثقافة عصره، ومنها أبو موسى المردار الذي اختص بلقب (راهب المعتزلة)، لكثرة عبادته ومقاطعته مجالس الدولة، وإليه يرجع الفضل في انتشار الاعتزال ببغداد.

ومنها يوسف الشحّام من أصحاب أبي هذيل العلاّف، قال عنه الجاحظ: كان من أحذق الناس بالجدل، ومنها الجعفران: (جعفر بن حرب، وجعفر بن مبشِّر).

---

(1) سير أعلام النبلاء، ج10، ص 561.

قال عنهما الخيّاط: إن المثل في العلم والعمل يُضرب في الجعفرين.

ومنها أبو جعفر الإسكافي: العالم الفاضل، قال عنه الصاحب بن عباد: «فاز بالعلم ثلاثة: حائك وحلّاج وإسكافي». وصفه الذهبي: أعجوبة في الذكاء وسعة المعرفة، مع التصوّف والنزاهة.

وطبقات المعتزلة هي ما فصّله القاضي عبد الجبار (رأس المعتزلة من المتأخرين)، وذكر في كل طبقة المشهورين من رجال زمانهم.

ووثّق ثُمامة صلته بالمأمون منذ كان في مرو، يقول البغدادي: إن المأمون تلقى على يدي ثُمامة مبادئ الاعتزال، فكأنه يقف منه موقف التلميذ من أستاذه.

وقد اختلف الباحثون حول حقيقة اتصال المأمون بمذهب المعتزلة، وبداية هذا الاتصال، كما اختلفوا على أهمية الدور الذي قام به ثُمامة بن أشرس لحمل المأمون على متابعة آراء المعتزلة، والذي لا شك فيه أن شخصية المأمون كان لها أكبر الأثر في اتصاله القوي بمذهب المعتزلة، إذ كان بطبيعته رحب العقل، واسع الصدر، حر الفكر مقبلًا على العلوم والثقافة بأنواعها المختلفة، وجد نفسه ميالًا بطبعه إلى المتكلمين من أصحاب النظر الحر، فانجذب إلى المعتزلة، واتخذ بطانته وصحابته من أتباع ذلك المذهب[1].

وكان المأمون يعبّر عن المعتزلة بقوله: (أصحابنا) ولهذا كانت مناظراته على مناهجهم.

من أهم مناظراته التي تظهر فكر المأمون وثقافته وقدرته الكلامية كانت مع رجل خراساني ارتدّ في عهده جاء فيها:

قال المرتد: أوحشتني كثرة ما رأيت من الاختلاف بينكم.

قال المأمون: لنا اختلافان، أحدهما كالاختلاف في الأذان، وتكبير الجنائز، والاختلاف في التشهد، وصلاة الأعياد، وتكبير التشريق، ووجوه الفتيا وما أشبه ذلك، وليس هذا باختلاف إنما هو تخيير وتوسعة وتخفيف من المحنة، ومن أذن مثنى وأقام فرادى لم

(1) المأمون الخليفة العالم، ص 134.

يحوّب، ولا يتعايرون ولا يتعايبون، أنت ترى ذلك عيانًا، وتشهد ذلك تبيانًا، والاختلاف الآخر نحو اختلافنا في تأويل الآية من كتابنا، وتأويل الحديث عن نبينا، مع اجتماعنا على أصل التنزيل، واتفاقنا على عين الخبر. ولو شاء الله أن يجعل كتبه، ويجعل كلام أنبيائه وورثة رسله لا يحتاج لتفسير لفعل، ولكنا لم نر شيئًا من الدين والدنيا دفع إلينا على الكفاية ولو كان الأمر كذلك لسقطت البلوى والمحنة وذهبت المسابقة والمنافسة، ولم يكن هناك تفاضل، وليس على هذا بنى الله الدنيا[1].

ومن مناظرات المأمون، مناظرته مع الثنوية: قال المأمون لثنوي: أسألك عن حرفين خبرني: هل ندم مسيء قط على إساءته؟ قال: بلى، قال: فالندم على الإساءة إساءة أو إحسان؟ قال: بل إحسان. قال: فالذي ندم هو الذي أساء أو غيره؟ قال: بل هو الذي أساء. قال فأرى صاحب الخير هو صاحب الشر، وقد بطل قولكم أن الذي ينظر نظر الوعيد هو الذي ينظر نظر الرحمة، قال: فإني أزعم أن الذي أساء غير الذي ندم، قال: فندم على شيء كان من غيره أو على شيء كان منه؟ فأسكته. وقال له أيضًا: أخبرني عن قولك باثنين، هل يستطيع أحدهما أن يخلق خلقًا لا يستعين فيه بصاحبه؟ قال: نعم. قال: فما تصنع باثنين؟ واحد يخلق كل شيء خير لك وأصحّ[2].

وما جاء في خطبه (الجُمع والأعياد) دلالة على ثقافته وعقيدته وبلاغته والحرص على أداء واجب الإمام:

جاء في خطبة المأمون يوم الجمعة: فاتقوا الله عباد الله، وبادروا آجالكم بأعمالكم، واتبعوا ما يبقى بما يزول عنكم، وترحّلوا فقد جُدّ بكم، واستعدوا للموت فقد أظلّكم، وكونوا قومًا صيح بهم فانتبهوا، وعلموا أن الدنيا ليست لهم بدار فاستبدلوا، فإن الله لم يخلقكم عبثًا، ولم يتركُّم سُدى، وما بين أحدكم وبين الجنة والنار إلا الموت أن ينزل به.

---

(1) تاريخ المذاهب الإسلامية، ص 135.

(2) العقد الفريد، ج2، ص 223.

وجاء في خطبة المأمون يوم الأضحى بعد التكبير الأول: ثم قال بعد ذكر الجنة والنار: عظم قدر الدارين، وارتفع جزاء العملين، وطالت مدة الفريقين، الله الله! فوالله إنه الجِدّ لا اللّعب، وإنه الحق لا الكذب، وما هو إلا الموت والبعث والميزان والحساب والقِصاص والصِّراط ثم العقاب والثواب، فمن نجا يومئذ فقد فاز، ومن هوى يومئذ فقد خاب. الخير كله في الجنة، والشر كله في النار.

وجاء في خطبة المأمون يوم الفطر بعد التكبير الأول: واعلموا أن قومًا من عباد الله أدركتهم عصمة الله فحذروا مصارعها، وجانبوا خدائعها، وآثروا طاعة الله فيها، فأدركوا الجنة بما تركوا منها[1].

أخذ المأمون بنصيحة يحيى بن أكثم في تعامله مع التنوع المذهبي والفكري والعرقي، والتوفيق بين المذاهب المختلفة في عصره: لا تظهر لهم أنك تميل إلى فرقة من الفرق؛ فإن ذلك أصلح في السياسة وأحرى في التدبر. وبالرغم من ذلك روايات عدة نسبت له الانحياز للفرس بسبب والدته (مراجل) الفارسية الأصل لذلك؛ اتخذ ولاة ووزراء من أصل فارسي أهمهم الفضل بن سهل المعروف بذي الرئاستين (رياسة الحرب ورياسة التدبير)، وشقيقه الحسن بن سهل، وتزوج المأمون بوران بنت الحسن لمكان أبيها منه، الذي تولى الوزارة بعد أخيه الفضل واشتهر بالأدب والفصاحة وحسن التوقيعات والكرم، وكان له مكانة من المأمون.

في توديع المأمون له حين أنفذه إلى العراق. قال له: اذكر يا أبا محمد حاجة إن كانت لك، فقال له: نعم يا أمير المؤمنين، احفظ عليّ من قلبك ما لا أستطيع حفظه إلا بك[2].

ونفى ابن خلدون في مقدمته حديث (الزَنْبِيل) في سبب إصهار المأمون إلى الحسن بن سهل في بنته بوران، وأنه عثر في بعض الليالي في تطوافه بسكك بغداد في زَنْبِيل (قفة كبيرة)

(1) عيون الأخبار، ج2، ص 253- 256.
(2) الوزراء والكتّاب، ص 305.

مُدلى من بعض السطوح بمعالق وجدل مُغارة الفَتْل من الحرير، فاعتقده وتناول المعالق فاهتزت وذهب به صَعُدًا إلى مجلس، وأن امرأة برزت له من خلل السُّتور في ذلك المجلس رائعة الجمال فتانة المحاسن، فحيته ودعته للمنادمة، فلم يزل يعاقرها الخمر حتى الصباح، ورجع إلى أصحابه بمكانهم من انتظاره، وقد شغفته حُبًا بَعَثهُ على الإصهار إلى أبيها!

يقول ابن خلدون: وأين هذا كله من حال المأمون المعروفة في دينه وعلمه واقتفائه سنن الخلفاء الراشدين من آبائه، وأخذه بسير الخلفاء الأربعة أركان المِلّة، ومناظرته العلماء، وحفظه لحدود الله تعالى في صلواته وأحكامه، فكيف تصحّ عنه أحوال الُفساق المستهترين، في التطواف بالليل، وطروق المنازل، وغشيان السمر، سبيل عشّاق الأعراب! وأين ذلك من منصب ابنة الحسن بن سهل (بوران) وشرفها، وما كان بدار أبيها من الصون والعفاف[1]!

ذكر المستشرق الإيطالي (جوزيبي جابرييلي)[2] أن النزعة الفارسية في حقيقتها لم تكن جزءًا من سياسة المأمون، وإنما هي سياسة الفضل بن سهل، ثم بيّن أن المأمون وإن كان له ميل عاطفي سابق إلى العلويين، ظهر بصورة فجائية ولأول مرة في الحقل السياسي في البيعة للرضا.

ولاية عهد المأمون للإمام الرضا

في سنة إحدى ومائتين جعل المأمون علي بن موسى بن جعفر ولي عهد المسلمين والخليفة من بعده، وسماه الرضا من آل محمد عليه الصلاة والسلام، وأمر جنده بطرح السواد ولبس ثياب الخضرة، وكتب بذلك إلى الآفاق، موضحًا السبب أنه «نظر في بني العباس وبني علي، فلم يجد أحدًا هو أفضل ولا أورع ولا أعلم منه، وأنه سماه الرضا، وأمر

(1) مقدمة ابن خلدون، ج1، ص 106.

(2) واضع فهارس وأمين خزانة (كايتاني) في أكاديمية لنشاي في روما، مهتم في الدراسات الأدبية العربية وتاريخ العلوم عند العرب، من آثاره: (عصر وحياة وقصائد الشاعرة الخنساء، والمأمون والعلويين).

بطرح لبس الثياب السود ولبس ثياب الخضرة، وأمر أصحابه والجند والقواد وبني هاشم بالبيعة له»[1].

ووقع على محضر ولاية عهد المأمون للإمام الرضا: الفضل بن سهل، عبد الله بن طاهر بن الحسين، ويحيى بن أكثم، وحمّاد بن النعمان، وبشر بن المعتمر (مؤسس فرع الاعتزال في بغداد)[2] ولم يكنْ ثُمامة معهم، وبعض الروايات ذكرت وجوده وشهادته.

تضاربت الآراء حول قضية البيعة للرضا، فهي ليست بالمسألة السهلة، وتحتاج إلى تحقيق:

- يرى البعض أن الفضل بن سهل هو الذي أوحى الفكرة للمأمون، وهذا ما أكده الفخري، والجهشياري، واليعقوبي، وذكره نعيم بن خازم للفضل: «إنك إنما تريد أن تزيل الملك عن بني العباس إلى ولد علي، ثم تحتال عليهم فتصير الملك كسرويًّا». وهذه النظرة تفسر الخلاف بين الفضل والإمام الرضا فيما بعد.
- ويمكن إضافة عامل له أهمية ثانوية، إذ إن انتصار المأمون كان ضربة لبني العباس أخوال الأمين، ودحرًا لآمالهم. ثم إن تذمر العلويين المستمر وثوراتهم هدداه بفقدان تأييد الفرع الثاني من بني هاشم[3].

والرأي الأكثر واقعية ما نستنتجه من خطاب المأمون أن قرار تعيين الإمام الرضا أفضل المرشحين لولاية العهد، ولا يشير جملة إلى حق العلويين، إنما أراد أن يضع طريقة جديدة لتنظيم ولاية العهد تعتبر العباسيين والعلويين على قدم المساواة في الترشيح للخلافة، وأن أفضلهم هو الذي يكون خليفة. وأكد على الفكرة الجاحظ، واعتبر الوصول إلى الخلافة

(1) تاريخ الأمم والملوك، ص 1784.

(2) صبح الأعشى، ج9، ص 392.

(3) العصر العباسي الأول، دراسة في التاريخ السياسي والإداري والمالي، ص 212- 213.

يعتمد على القابليات والصفات الشخصية، وليس الوراثة المباشرة، أو تكون محصورة في عائلة واحدة[1].

ذكر حسن الأمين: إن محاولة الخليفة العباسي المأمون نقل الخلافة إلى الرضا علي بن موسى حدث من أضخم أحداث التاريخ، كان يمكن له، لو تم، أن يغيّر مجرى التاريخ[2].

في سنة ثلاث ومائتين مات الإمام الرضا، وكان سبب موته أنه أكل عنبًا فأكثر منه، فمات فجأة، صلى عليه المأمون ودفنه عند قبر أبيه الرشيد، وكتب إلى أهل بغداد وبني العباس والموالي يُعلمهم موته، وأنهم إنما نقموا ببيعته. وردّ ابن الأثير رواية أن المأمون سمّه في عنب قائلًا: وهذا عندي بعيد[3].

في بغداد كان ثُمامة في أيام المأمون الصديق الثقة والمستشار الخاص.

(1) الخلافة العباسية عصر القوة والازدهار، ص 251.

(2) الرضا والمأمون وولاية العهد، ص 6.

(3) الكامل في التاريخ، ص 924.

نـوادره

فقد ملئت كتب الأدب بأحاديثه الممتعة، ونوادره الطريفة.

(أحمد أمين)

النوادر ومفردها نادر أو نادرة، ونوادر الكلام تَنْدُرُ، وهي ما شَذّ وخرج من الجمهور، وذلك لظهوره[1]، ويطلق على الأحداث الغريبة الوقوع والممتعة والحكايات المتوارثة نوادر.

يزخر التراث العربي بمادة غزيرة عن الفكاهة والمُلح والنوادر في مختلف العصور، فتحوي الكتب حكايات كثيرة شعرًا ونثرًا، وظاهرة المفاكهة بالنوادر اشتهرت بين عموم رجال العلم، وسمّوا ذلك (الإحماض)، عن ابن عباس[2]: كان إذا أفاض في القرآن والسنن قال لمن عنده: أحمضوا، أي غوصوا في الشعر والأخبار، وأصل ذلك أن الإبل إذا أكثرت الرعي في النبات الحلو أخرجوها إلى ما فيه حموضة، خوفًا عليها من الهلاك.

وقد اشتهرت شخصيات تاريخية امتلكت روح الفكاهة، وامتلأت كتب التراث بنوادرها مثل: جحا، والجمّاز، وأبي هريرة المصري، وجحظة البرمكي، وأدهم المضحك، والأعمش، وأشعب، وعطاء، والغاضري، وأبي دلامة، وابن أبي مريم، وأبي نواس، وغيرهم...

ذكر التوحيدي:

إياك أن تعاف سماع هذه الأشياء المضروبة بالهزل، الجارية على السخف، فإنك لو أضربت عنها جملة لنقص فهمك، وتبلّد طبعك[3].

ويعدّ الجاحظ أسبق الكتّاب العرب احتفالًا بالفكاهة، وكان رائدًا في فكاهاته كما كان هذا شأنه في معظم القضايا والموضوعات التي عرضها على عقله وعالج الكتابة فيها، فلم تكن فكاهات عارية عن الهدف أو فارغة من المضمون، بل كثيرًا ما تأتي مصحوبة بالتلميح الهادف، أو التعريض اللاذع التي تسمو في جوهرها على اللهو الفارغ أو العبث الرخيص.

---

(1) لسان العرب، ص 4382.

(2) كَفُّ الرَّعاع عن محرمات اللهو والسماع، ص 152.

(3) البصائر والذخائر، ص 139.

وهو أول من ابتكر هذا الأسلوب المرح، وأسبق من عُني بمراعاة ميول قرائه، وتفنن في إمتاعهم، وإدخال السرور عليهم، إبقاء على نشاطهم وإبعادًا للملل والسأم عنهم[1].

وقد تأثر الجاحظ بثُمامة وذكره كثيرًا في كتبه وروى عنه النوادر؛ فرغم عظم قدره كان يملك ميلًا فطريًّا للفكاهة، وملئت كتب الأدب بنوادره الطريفة.

مقتطفات من نوادر ثُمامة

في كتاب الحيوان للجاحظ:

(قصة ثُمامة فيما شاهده من الفأر)[2]

حدثني ثُمامة بن أشرس قال: كان بقي في الحبس جُحر فأر، وتلقاءه جُحرٌ آخر، فيرى لكل واحدٍ منهما وعيدًا وصياحًا ووثوبًا، حتى يُظنّ أنهما سيلتقيان ثم لا يحتجزان حتى يقتل كلّ واحدٍ منهما صاحبه، فبينما كل واحدٍ منهما في غاية الوعيد، إذ مرّ هاربًا حتى دخل في جُحره، فما زالا كذلك، حتى أتى الله تعالى بالفرج وخُلي سبيلي.

(حكاية ثُمامة عن ممرور)[3]

حدثني ثُمامة بن أشرس قال: كان رجلٌ ممرور يقوم كل يوم فيأتي دالية لقوم، ولا يزال يمشي مع رجال الدالية على ذلك الجذع ذاهبًا وجائيًا، في شدة الحر والبرد، حتى إذا أمسى نزل إليهم وتوضأ وصلّى، وقال: اللهم اجعل لنا من هذا فرجًا ومخرجًا! ثم انصرف إلى بيته. فكان كذلك حتى مات.

(دعوتان طريفتان لأحد القصّاص)[4]

---

(1) أدب الفكاهة عن الجاحظ، ص 5-6.

(2) الحيوان، ج2، ص165.

(3) المرجع نفسه، ج3، ص30.

(4) الحيوان، ج3، ص 324.

قال ثُمامة: تساقط الذبّان في مَرق بعض القصّاص وعلى وجهه فقال: كثّر الله بكنّ القبور! وحكى ثُمامة عن هذا القاص أن سمعه بعبادان (جزيرة في دجلة)، يقول في قَصَصِه: اللهم مُنّ علينا بالشهادة، وعلى جميع المسلمين!

(أبو حكيم وثُمامة بن أشرس)[1]

وسمعت أبا حكيم الكيميائي وهو يقول لثُمامة: قلنا لكم إنّنا ندلكم على الإكسير[2]، فاستثقلتم الغُرم، وأردتم الغُنم بلا غُرم.

وقلنا لكم: دعونا نصنع هذه الجسور صنعة لا تنتقض أبدًا، فأبيتم. وقلنا لكم: ما ترجون من هذه المسنيّات[3] التي تهدمها المُدود، وتخرّبها المرادي؟! نحن نعمل لكم مسنيّات بنصف هذه المؤونة، فتبقى لكم أبدًا، ثم قولوا للمُدود[4] أن تجتهد جهدها، وللمرادِيِّ أن تبلغ غايتها، فأبيتم. وقولوا لي: الذُّباب ما ترجون منها؟ وما تشتهون من البعوض؟

وما رغبتم في الجرجس[5]؟ لم لا تَدعُوني أخرجها من بيوتكم بالمؤونة اليسيرة؟ وهو يقول هذا القول وأصحابنا يضحكون، وابن سافري جالسًا يسمع، فلما نزلنا أخذه بيده ومضى به إلى منزله، فغدّاه وكساه وسقاه، ثم قال له: أحببت أن تخرج البعوض من داري، فأما الذُّباب فإني أحتمله. قال: ولم تحتمل الأذى وقد أتاك الله بالفرج؟ قال: فافعل. قال: لا بدّ لي من أن أخلط أدوية قال: فكم تريد؟ قال: أريد شيئًا يسيرًا. قال: وكم ذاك؟ قال: خمسون دينارًا. قال: ويحك! خمسون يقال لها يسير! قال: أنت ليس تشتهي الراحة من قذر الذبّان ولسع البعوض! ثم لبس نعليه وقام على رجليه. فقال له: اقعد قال: إن قعدت

---

(1) المرجع نفسه، ج3، ص 385- 388.

(2) الإكسير: هو الدواء الذي إذا طبخ به الجسد المذاب جعله ذهبًا أو فضة، أو غيره إلى البياض أو الصفرة.

(3) المسنيّات: الأحباس تبنى في الأودية.

(4) المُدود: السيل أو كثرة الماء.

(5) الجرجس: البعوض الصغار.

قبل أن آخذها ثم اشتريت دواءً بمائة دينار لم تنتفع به، فإني لست أدَخِّن هذه الدُّخْنة، إلا للذين إذا أمرتهم بإخراجهنّ أخرجوهن. ولا أكتمك ما أُريد، إني لست أقصد إلّا إلى العُمّار[1]. فما هو إلا أن سمع بذكر العُمّار حتى ذهب عقله، ودعا له بالكيس وذهب ليزن الدنانير، فقال له: لا تشق على نفسك! هاتها بلا وزنٍ عددًا، وإنّما خاف من أن تحدث حادثة، أو يقع شغل، فتفوت. فعدّها وهو زَمِعٌ[2] فغلط بعشرة دنانير، فلما انصرف وزنها وعدّها فوجد دنانيره تنقص، فَبَكَر عليه[3] يقتضيه الفَضْل، فضحك أبو حكيم حتى كاد يموت، ثم قال: تسألني عن الفرع وقد استُهلك الأصل؟! ولم يزل يختلف إليه ويدافعه حتى قال له ثُمامة: ويلك أمجنون أنت؟! قد ذهب المال والسُّخرية مستورة. فإن نافرته فضحت نفسك، وربحت عداوة شيطان هو والله أضرُّ عليك من عُمَّار بيتكَ، الذين ليس يخرجون عنك الذباب والبعوض بلا كُلفة، مع حق الجوار. قال: هم سكّاني وجيراني. قالوا: لو كان سمع منك أبو حكيم هذه الكلمة لكانت الخمسون دينارًا مائة دينار!!

في كتاب البُخلاء للجاحظ[4]:

قال ثُمامة: لم أرَ الديك في بلدة قط إلا وهو لافظ، يأخذ الحبّة بمنقاره، ثم يلفظها قُدام الدجاجة، إلا ديكة مرو[5]، فإني رأيت ديكة مرو تسلب الدجاج ما في مناقيرها من الحبّ! قال: فعلمت أنّ بخلهم شيء في طبع البلاد، وفي جواهر الماء، فمن ثمّ عمّ جميع حيوانهم.

---

(1) العُمّار: سكان البيوت من الجن فيما يزعمون.

(2) زمع: دهش.

(3) جاء إليه أول النهار.

(4) البخلاء، ص 25.

(5) مرو: من أهم مدن المشرق الإسلامي، وأحد أرباع إقليم خراسان، كما كانت مقرًّا لشاهات الفرس ولولاة الدولة الأموية.

فحدّثت بهذا الحديث أحمد بن رشيد، فقال: كنت عند شيخ من أهل مرو، وصبيّ له صغير يلعب بين يديه، فقلت له – إمّا عابثًا وإمّا ممتحنًا: أطعمني من خبزكم! قال: لا تريده، هو مرٌّ! فقلت: فاسقني من مائكم! قال: لا تريده، هو مالح! قلت: هات لي من كذا وكذا! قال: لا تريده، هو كذا وكذا! إلى أن عددتُ أصنافًا كثيرة، كل ذلك يمنعُنيه ويبغضه إليّ! فضحك أبوه، وقال: ما ذنبنا؟ هذا من علّمه ما تسمع! يعني البخل طبعٌ فيهم، وفي أعراقهم وطينتهم.

وكان ثُمامة يُفَطِّرُ أيام كان في أصحاب الفساطيط ناسًا، فكثروا عليه، وأتوه بالرقاع والشفاعات، وفي حشوة المتكلمين أخلاق قبيحة، وفيهم على أهل الكلام وعلى أرباب الصناعات محنة عظيمة. فلما رأى ثُمامة ما قد دهمه، أقبل عليهم – وهم يتعشون – فقال: إن الله عز وجل لا يستحي من الحق، كلكم واجب الحق، ومن لم تجئنا شفاعته فالحرمة كمن تقدمت شفاعته. كما أنا لو استطعنا أن نُعمّكم بالبرّ لم يكن بعضكم أحق بذلك من بعض. فكذلك أنتم إذا أعجزنا أو بدا لنا، فليس بعضكم أحق بالحرمان من بعض، أو بالحمل عليه، أو بالاعتذار إليه من بعض. ومتى قرّبتكم، وفتحت بابي لكم، وباعدت من هو أكثر منكم عددًا، وأغلقت بابي دونهم، لم يكن في إدخالي إياكم عذرًا لي، ولا في منع الآخرين حجة، فانصرفوا ولم يعودوا[1]!

في كتاب القول في البغال للجاحظ[2]:

- قالوا: ولما بلغ المأمون اختلاطٌ من حال البريد، وجه ثُمامة، ليتعرّف له ذلك. فلما رجع إليه وسأله، قال: يا أمير المؤمنين تركت بغلًا على مَعْلف كذا وكذا وهو يقرأ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا﴾ ومررت بسكة أخرى، فإذا بغل قد عَدَا

(1) البخلاء، ص277-278.

(2) القول في البغال، ص 56- 57.

على رجل عليه طيلسان أخضر، يظنه حُزمة علف، فعدا الرجل، وعدا خلفه البغل، فصحت بالرجل: اطرح الطيلسان! فلما طرحه، وقف البغل يشمّه.

ومررت بسكّة أخرى، وإذا على المَعْلف بغلٌ، وإذا هو يغنّي:

ولقد أبيتُ على الطَّوى وأَظلُّهُ حتى أنالَ به كريمَ المَأْكَلِ

في كتاب تاريخ مدينة السلام للخطيب البغدادي[1]:

- قال ثُمامة: دخلت إلى صديق لي أعودُه وتركت حماري على الباب، ولم يكن معي غُلام. ثم خرجت فإذا فوقه صبي، فقلت: لم ركبت حماري بغير إذني؟ قال: خفت أن يذهب فحفظته لك. قلت: لو ذهب كان أعجب إليّ من بقائه، قال: فإن كان هذا رأيك في الحمار فاعمل على أنه قد ذهب وهبه لي، واربح شُكري، فلم أدر ما أقول!
- وأخبرنا الجاحظ[2] سنة ثلاث وخمسين ومئتين، قال: حدثني ثُمامة بن أشرس، قال: شهدت رجلًا يومًا من الأيام وقد قدّم خصمًا إلى بعض الولاة، فقال: أصلحك الله ناصبيّ، رافضيّ، جهميّ، مشّبِّه، مجبِّر، قدريّ، يشتم الحجاج بن الزُّبير، الذي هدم الكعبة على عليّ بن أبي سفيان، ويلعن معاوية بن أبي طالب! فقال له الوالي: ما أدري مما أتعجب! من علمك بالأنساب، أو من معرفتك بالمقالات! فقال: أصلحك الله ما خرجت من الكُتَّاب حتى تعلمتُ هذه كله.
- قال رجل لثُمامة[3]: أنت إن شئت قَضَى فلان حاجتي، فقال ثُمامة: أنا قَدَريّ ولم تبلغ قدريتي هذا كله. إنما قُلتُ: إن شئتُ فعلتُ ولم أقل: إن شئتُ فعل فلان!

---

(1) تاريخ مدينة السلام، ج8، ص 20.

(2) المرجع نفسه، ج8، ص 21.

(3) المرجع نفسه، ج8، ص 22.

- حدثنا[1] محمد بن أبي كبشة. قال: كنت في سفينة في البحر، فسمعت هاتفًا يهتف وهو يقول: لا إله إلا الله كذَبَ المريسي (بشر المريسي) على الله، ثم عاد الصوت، فقال: لا إله إلا الله، على ثُمامة والمريسي لعنة الله، قال: وكان معنا في المركب رجل من أصحاب المريسي فخرّ ميّتًا!

في العِقْد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي:

(ابن أشرس وآخر)[2]

وقال ثُمامة بن أشرس: كنت في الحبس، فأُدخل علينا رجل ذو هيئة وبزة ومنظر، فقلت له: من أنت جُعلت فداك؟ وما ذنبك؟

- وفي يدي كأس دعوت بها لأشربها قال جاء بي هؤلاء السفهاء لأنني جئت بالحق من عند ربي، أنا نبيّ مرسل! قلت: جعلت فداك: معك دليل؟ قال: نعم، معي أكبر الأدلة، ادفعوا إليّ امرأة أُحبلها لكم، فتأتي بمولود يشهد بصدقي! قال ثُمامة: فناولته الكأس وقلت له: اشرب، صلى الله عليك!

في عيون الأخبار لابن قتيبة[3]:

- قال ثُمامة: كان يحيى بن أكثم يماشي المأمون يومًا في بستان موسى والشمس عن يسار يحيى والمأمون في الظل وقد وضع يده على عاتق يحيى وهما يتحادثان حتى بلغ حيث أراد ثم كرّ راجعًا في الطريق التي بدأ فيها فقال ليحيى: كانت الشمس عليك لأنك كنت عن يساري وقد نالت منك فكن الآن حيث كنتُ وأتحول أنا إلى حيث كنتَ. فقال يحيى: والله يا أمير المؤمنين لو أمكنني أن أقيَك هول المطلع

(1) المرجع نفسه، 8 ص 23.

(2) العِقد الفريد، ج7، ص 160.

(3) عيون الأخبار، ج1، ص 23

بنفسي لفعلت. فقال المأمون: لا والله ما بُدٌّ من أن تأخذ الشمس مني مثل ما أخذت منك. فتحوّل يحيى وأخذ من الظل مثل الذي أخذ منه المأمون.

- وقال رجل لثُمامة[1]: إن لي إليك حاجة، فقال ثُمامة: ولي إليك حاجة، قال: وما هي؟ قال: لا أذكرها حتى تتضمن قضاءها، قال: قد فعلت، قال: حاجتي ألا تسألني هذه الحاجة، قال: رجعت كما أعطيتك، قال ثُمامة: لكني لا أردّ ما أخذتُ.

في جمع الجواهر في المُلح والنوادر لأبي إسحاق القيرواني:

- قال الجاحظ حدثني[2] ثُمامة قال: مررت في غِبّ مطر، والأرض نديّة، والسماء مغيّمة، والريح شمالية، وإذا شيخٌ أصفر كأنه جرادة، وقد جلس على قارعة الطريق، وحجّام زنجي يَحْجُمه. وقد وضع على كاهله وأخدعيه مِحْجمة كأنها قعب وقد مصّ دمه حتى كاد يستفرغه، قال: فوقفت عليه وقلت: يا شيخ، لِمَ تحتجم في مثل هذا اليوم؟ فقال: لمكان الصفار الذي فيّ.
- وقال ثُمامة بن أشرس[3]: كنت عند المأمون يومًا إذ جاءه الحاجب يستأذن لعمير المأموني، فكرهت ذلك، ورأى الكراهة في وجهي، فقال: يا ثُمامة، مالك؟ قلت: يا أمير المؤمنين إنا إذا غنّانا عمير ذكر مواطن الإبل، وكثبان الرمل، وإذا غنّتنا فلانة انبسط أملي، وقوي جَذَلي، وانشرح صدري، وذكرت الجنان. كم يا أمير المؤمنين بين أن تغنّيك جارية غادة كأنها غُصْن بان، بمقلة وسنان، كأنما خلقت من ياقوتة، أو خرطت من درة، بشعر عُكّاشة العمّي:

من كفٍّ جاريةٍ كأنّ بنانَها ... من فضّةٍ قد طُرِّزَت عُنَّابا

وكأنّ يمناها إذا ضَرَبتْ بها ... تُلْقي على يَدِها الشمالِ حِسَابا

---

(1) المرجع نفسه، ج3، ص 137.

(2) جمع الجواهر في المُلح والنوادر، ص 187- 188.

(3) المرجع نفسه، ص 317.

وبين أن يغنيك رجلٌ ملتفّ اللحية، غليظ الأصابع، خَشن الكفّ، بشعر ورقاء بن زهير:

رأيــت زهيــرًا تحــت كَلْكَــلِ خالــد فأقبلــت أســعى كــالعَجُولِ أبــادرُ

وكم بين من يحضرك من تشتهي النظر إليه، وبين من لا يقف طَرْفك عليه؟

فتبسم المأمون. وقال: إن الفَرْق لواضح، وأن المنهج لفسيح، يا غلام، لا تأذن له! وأحضر قَيْنَة. قال: فظللْنا في أمتع يوم.

في كتاب بغداد لابن طِيفور[1]:

وذُكر عن ثُمامة قال: لما دخل المأمون مدينة السلام حضرت مجلسه وقد جاؤوه برجل زعم أنه خليل الرحمن، فقال لي المأمون: أسمعت أحدًا أجرأ على الله من هذا؟ فقلت: إن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في مناظرته؟ قال: شأنك به. فقلت له: يا هذا: إن إبراهيم كانت معه براهين وآيات. قال: وما كانت براهينه وآياته؟ قلت: أُضرمت له نار وأُلقي فيها فصارت عليه بردًا وسلامًا، فنحن نضرم لك نارًا أو نطرحك فيها، فإن كانت عليك بردًا وسلامًا صدقناك وآمنا بك. قال: هات غير هذا. قلت: براهين موسى. قال: وما براهينه؟ قلت: عصاه التي ألقاها فإذا هي حيّة تسعى، وفلق بها البحر فصار يبسًا، وألقاها فالتقفت ما أفك السحرة. قال: هات غير هذا. قلت: براهين عيسى. قال: وما هي؟ قلت: يحيي الموتى، ويبرئ الأكمه والأبرص، ويخبر بما في الضمير. قال: ما معي من هذا الضرب شيء، وقد قلت لجبريل إنكم توجهونني إلى شياطين فأعطوني حجة أذهب بها وإلا لا أذهب، قال لي جبريل وغضب: قد جئتَ بالشر من الساعة اذهب أولًا فانظر ما يقول لك القوم؟ فضحك المأمون وقال: هذا طيب. قلت يا أمير المؤمنين: هذا رجل هاجت به المِرَّة[2]، وأعلام ذلك بيّنة فيه. قال: صدقت. وأمر به إلى الحبس، وأن يعالج من مِرّة إن كان به.

---

(1) كتاب بغداد، ص 39- 40.

(2) الجنون.

في غُرر الخصائص الواضحة وعُرر النقائص الفاضحة، لأبي إسحق الكتبي/ الوطواط[1]:

حُكِيَ أن ثُمامة بن أشرس قال: بعثني الرشيد إلى دار المجانين لأصلح ما فسد من حالهم، فرأيت فيهم شابًّا حسن الزيّ، كأنه صحيح العقل، فقال لي: يا ثُمامة إنك تقول إن العبد لا ينفك من نعمة يجب الشكر عليها، وبلية يجب الصبر لديها، وقال: مسألة، قلت: ما هي؟ قال: متى يجد النائم لذة النوم، إن قلت في حال نومه فمحال، وإن قلت إذا استيقظ فبعيد أن يجد لذّة شيء انقضى ومضى، فبهت لا أحير جوابًا، فقال: مسألة أخرى، قلت: وما هي؟ إنك تزعم أن لكل أمة نذيرًا، فما نذير الكلاب؟ قلت: لا أدري.

فقال: أما جواب المسألة الأولى: فإنها محال، لأن النوم داء، ولا لذة مع وجود الدواء. أما جواب المسألة الثانية، وأخرج من كمه حجرًا وقال: فإذا عدا عليك كلب فهذا نذيره، ورماني بالحجر فأخطأني، وأصاب الأسطوانة، فلما رآه قد أخطأني قال: فإنك النذير يا أيها الكلب، فعلمت أنه مجنون، وأنّ عقله مصاب، فتركته وانصرفت وقنعت من الغنيمة بالإياب.

في عقلاء المجانين لأبي القاسم ابن حبيب[2]:

وروي عن ثُمامة بن الأشرس قال: دخلت دير هِزْقَل[3] فرأيت شابًا مشدودًا إلى سارية. فقال: من أنت؟ قلت: ثُمامة، قال: المتكلّم؟ قلت: نعم. قال: فعمد إلى كوز فيه ماء فصبّه، ثم قال: أين ذهب هذا الماء؟ قلت اجتَذَبَتْه الأرض للحرارة، قال: فينبغي أن تفور الأرض في الشتاء عيونًا. قال: فأفحمني. قلت له: فما تقول؟ فقال: كل شيء يذهب إلى شكله، الماء الذي تحت الأرض اجتذبه إلى نفسه. ثم قال: يا ثُمامة، هل للنوم لذّة؟ قلت: نعم: قال متى يجدها صاحبها؟ إن قلت قبل النوم أحَلْتَ، وإن قلت مع النوم أخطأتَ، لأنه

(1) غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائص الفاضحة، ص 166- 167.

(2) عقلاء المجانين، ص 337.

(3) هِزْقَل أو هِرقل.

ذاهب العقل، وإن قلت بعد النوم أخطأتَ لأنه قد انقضى. قلت: فما تقول أنت؟ قال: إن النعاس داء يحل بالبدن دواؤه النوم.

(قد تكون الرواية ذاتها التي جاءت في كتاب غُرر الخصائص، ولكن ذُكرت في سياق مختلف والله أعلم).

في كتاب مصارعُ العُشّاق لأبي محمد السرّاج القارئ[1]:

(المأمون يسأل ما هو العشق؟)

سأل أمير المؤمنين المأمون يحيى بن أكثم عن العشق ما هو؟ فقال: سوانحُ تسنح للمرء، فيهتم بها قلبه، وتؤثرها نفسه. قال: فقال له ثُمامة: اسكت يا يحيى! إنما عليك أن تجيب في مسألة طلاق أو في مُحرم صاد ظبيًا أو قتل نملة، فأما هذه فمسائلنا نحن. فقال له المأمون: قل يا ثُمامة، ما العشق؟

فقال ثُمامة: العشق جليسُ ممتع، وأليف مؤنس، وصاحب مُلكٍ مسالكه لطيفة، ومذاهبه غامضة، وأحكامه جائزة، مَلَكَ الأبدان وأرواحها، والقلوب وخواطرها، والعيون ونواظرها، والعقول وآراءها، وأعطى عنان طاعتها، وقوْد تصرّفها، توارى عن الأبصار مدخله، وعَمِيَ في القلوب مسلكه. فقال له المأمون: أحسنت والله يا ثُمامة! وأمر له بألف دينار.

(1) مصارع العشّاق، ص 11- 12.

في حدائق الأزاهر في مستحسن الأجوبة والمضحكات والحكم والأمثال والحكايات والنوادر للقاضي أبي بكر الغرناطي[1]:

- دخل رجل على ثُمامة بن أشرس وبين يديه طبق بفراريج، فغطى الطبق بذيله، وأدخل رأسه في جيبه، وقال للرجل الداخل: كن أنت في البيت الآخر، حتى أفرغ من بخوري!

في كتاب الأغاني للأصفهاني[2]:

قال ثُمامة به أشرس: مررت بإبراهيم الموصلي ويزيد حَوْراء وهما مصطحبان، وقد أخذا بينهما صوتًا يغنيانه: هذا بيتًا وهذا بيتًا، وهو:

أيا جَبَلي نُعمان بالله خلّيا ... نسيمَ الصَّبا يَخلُصْ إليّ نَسيمُها

فإن الصَّبا ريحٌ إذا ما تنفّست ... على قلب مَحزونٍ تجلّت همومُها

قال ثُمامة: فوالله ما خِلْت أن شيئًا بقي من لذات الدنيا بعد ما كانا فيه.

في كتاب التصوّف الإسلامي في الأدب والأخلاق لزكي مبارك[3]:

وقال ثُمامة بن أشرس: أنشدني أبو العتاهية:

إذا المرء لم يعشق من المال نفسهُ ... تملّكه المال الذي هو مالكهْ

ألا إنما مالي الذي أنا منفقٌ ... وليس لِيَ المالُ الذي أنا تاركهْ

إذا كنت ذا مال فبادر به الذي ... يحق وإلا استهلكتهُ مهالكهْ

---

(1) حدائق الأزاهر، ص 144.

(2) الأغاني، ج5، ص 243- 244.

(3) التصوّف الإسلامي في الأدب والأخلاق، ص 96.

فقلت له: من أين قضيت بهذا؟ قال: من قول رسول الله عليه الصلاة والسلام: «إنما لك من مالك ما أكلت فأفنيتَ، أو لبستَ فأبليت، أو تصدقت فأمضيت»، فقلت له: أتؤمن بأن هذا قول رسول الله عليه الصلاة والسلام وأنه الحق؟ قال: نعم. قلت: فلِمَ تحبس عندك سبعًا وعشرين بَدْرَةً في دارك (عشرة آلاف درهم)، ولا تأكل منها ولا تشرب ولا تُزكي ولا تقدّمها ذخرًا ليوم فقرك وفاقتك؟ فقال: يا أبا معن، والله إن ما قلت لهو الحق، ولكني أخاف الفقر والحاجة إلى الناس، فقلت: وبم تزيد حال من افتقر على حالك، وأنت دائم الحرص، دائم الجمع، شحيح على نفسك لا تشتري اللحم إلا من عيد إلى عيد! فترك جواب كلامي كله ثم قال لي: والله اشتريت في يوم عاشوراء لحمًا وتوابله وما يتبعه بخمسة دراهم. فلما قال لي هذا القول أضحكني حتى أذهلني عن جوابه ومُعاتبته، فأمسكت عنه وعلمت أنه ليس ممن شرح الله صدره للإسلام!

بذلت جهدي ما استطعت لجمع النوادر التي تناثرت في الكتب عن ثُمامة، مدركًا أنه ما زال الكثير لم أصل إليه، ومقتنعًا أن كثيرا مما وصل إلينا عنه نُسِبَ إليه زورًا.

شبهات وردود

ثُم إنّ الماجن السفيه (ابن الراوندي) حكى عن ثُمامة شيئًا كان هو يُعرف به وعوتب عليه مرارًا فلم يتركه حتى أهلكه الله.

(أبو الحسين الخيّاط)

بمجرد أن يُذكر اسم ثُمامة بن أشرس، يتبادر إلى أذهاننا ملازمته للخليفة المأمون، وكثرة نوادره وشخصيته الهزلية الممزوجة بالمكر والنفاق والعربدة، ويعود ذلك إلى قلة المصادر، وكثرة الروايات المُختَلَقة، والنقل من كتب الخصوم التي تحاملت عليه.

وأعتذر من القارئ إن كان في الردود على الشُبهات تكرار وإعادة، فالقصد إجمال سيرته وفكره، وإضافة بعض ما فاتني.

أصله:

أغلب الروايات التي وصلتنا من كتب الأعلام والسِّيَر أكدت أنه من البصرة، ومن بني نُميْر صُلبية. خالف البغدادي تلك الروايات مؤكدًا أن ثُمامة من موالي بني نمير، ونَقلت عنه كتب عدة اشتركت معه في التعصب والخصومة، والسبب قولٌ نُسب إلى ثُمامة يُحرّم فيه السبي ويعتبر المولود منه ولد زنا، اعتبر البغدادي رأي ثُمامة بدعة يخالف فيها المذاهب وجمهور الفقهاء وإقرارًا منه على نفسه بأنه ولد زنا، لأنه كان من الموالي وكانت أمه مسبيّة.

وللتأكيد على أصوله العربية ذكر الجاحظ في رسالة مناقب الترك[1]: فهذا ثُمامة بن أشرس، وهو عربي لا يُتَّهم في الإخبار عنهم.

وذكر الجهشياري في كتاب الوزراء والكتّاب[2]: أن الناس اجتمعوا جميعًا: القوّاد، والقضاة، والفقهاء، ووجوه العامة، وجلس الفضل على فُرش مرتفعة، فلما وصلوا إليه قام فخطب، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم ابتدأ في الوقيعة في عبد الله بن مالك، وذكر أنه كان يدّعي على الرشيد في حكايته دخول بيوت القيان، وهو كاذب في ذلك، وهو الذي كان يأتي المواخير والدساكر، لا يرفع عن ذلك نفسه، ولا يأنف من فُجره، ولا يصون قدره.

---

(1) رسائل الجاحظ، ص 61.

(2) الوزراء والكتّاب، ص 314- 315.

قال ثُمامة: ثم أقبل عليّ فقال: وإن أبا معن يعلم ذلك، ويعرف ما أقول، فتركت تشييع قوله بالتصديق، وأطرقت إلى الأرض، ودخلتني العصبية لعبد الله بن مالك، للعربية أولًا، ثم لنفسه أخرى؛ ثم عاد إلى أن يَهْتِر عبد الله، ويتوسع في الدعاوي عليه؛ ثم أقبل عليّ وقال: وإن ثُمامة ليعلم ذلك؛ فأطرقت وأمسكت، وإنما كان يريد مني أن أشيع كلامه بالتصديق. فلما رأى إعراضي عن مساعدته ترك الإقبال عليّ، وأخذ في خطبته، حتى فرغ من أربه في عبد الله بن مالك. فلما تفرق الناس وانصرفت علمت أني وقعت، وتعرضت لِموْجِدة الفضل، وهو الوزير، فلما وصلت إلى منزلي جاءني بعض إخواني، ممن كان في ناحية الفضل، فأخبرني أن يحيى بن عبد الله وغيره قالوا: ماذا صنعت يا أبا معن؟ يخاطبك فتعرض عنه مرة بعد أخرى، فقلت: أنا والله أحق بالموجدة عليه، أعزّه الله، لأنه قام في مثل ذلك المجمع، وقد حضره كل شريف ومشروف، ولم يستشهد بي في خطبته، وما أجراه من كلامه، إلا في موضع ريبة، أو ذكر دَسكرة، أو منزل مُقَيّن أو مُقيّنة، والله ما أقدر أن أشهد بذلك إلا أن أكون للقوم تاليًا، قال: صدقت، والله يا أبا معن، بئس الموضع وضَعك! ورجع إليه بكلامي، فقال: صدق والله، ثُمامة أحق بالَمَعْتبة منّا عليه، واندفعت عن موجدته، وما كنت أردت إلّا ما دخلني من الحميّة لعبد الله بن مالك.

موضع الشاهد في الرواية ما قاله ثُمامة: (ودخلتني العصبية لعبد الله بن مالك للعربية أولًا) وقوله: (وما كنت أردت إلا ما دخلني من الحميّة لعبد الله بن مالك).

محنة خلق القرآن في عهد المأمون، وسعيه إلى الخليفة الواثق بأحمد بن نصر

لم يُعرف تاريخ ومكان ولادته، ينحدر ثُمامة من البصرة فارقها إلى خراسان، واستقر في بغداد. أكدت أغلبية الروايات تاريخ وفاته (213هـ)، وتاريخ وفاته يشهد أنه لم يحضر

محنة خلق القرآن، ولم يشرف عليها، إذ توفي قبل قرار المأمون بإظهارها وامتحان القضاة والفقهاء بخمس سنوات، ولم يوجد في زمن الخليفة الواثق.

الثُمامية

ما نجده في الكتب عن الثُماميّة يعطي تصورًا أن ثُمامة مؤسس فرقة انشقت عن مدرسة المعتزلة، والحقيقة أن ثُمامة وأصحابه بقوا على انتسابهم للمدرسة، ومقالاتهم واجتهاداتهم تستند إلى مبنى المدرسة باستخدام أدوات المذهب الاجتهادية، والاختلافات رغم حدّتها لم ترقَ إلى الانقسام. على سبيل المثال، نقض أبو جعفر الإسكافي كتاب (العثمانية) على أبي عثمان الجاحظ في حياته. وحين دخل الجاحظ سوق الورّاقين ببغداد قال: من هذا الغلام السَّواديّ الذي بلغني أنه تعرّض لنقض كتابي؟ وأبو جعفر جالس، فاختفى منه حتى لم يره!

فكره وآراؤه

ما أشيع عن ثُمامة أنه مبتدع لآراء شاذة وغريبة انفرد بها، وخالف أصول مدرسته. وجاء الرد متأخرًا بظهور الكتاب الأهم في تاريخ المعتزلة (الانتصار والرد على ابن الراوندي) وهو بمثابة وثيقة براءة علماء المعتزلة مما طُعنوا به من افتراءات وأكاذيب، مع التوضيح التفصيلي لآرائهم ومقالاتهم، فصاحب الكتاب أبو الحسين الخيّاط (مؤرخ المعتزلة)، اعتمد فيه منهجًا تحليليًّا نقديًّا لآراء المعتزلة من واقع خبره مذهبية وعمق ثقافي وإلمامه بمواقف وآراء رفاقه على نحو واضح، ليبيّن أن ابن الراوندي وضع كتاب (فضيحة المعتزلة) لشتمهم والانتقام منهم ليس أكثر.

وقد حفل (الانتصار) بدفاعات الخياط عن أصحابه بعد زمن من التشويه وبيان مآثرهم، وإظهار فضلهم في حماية مبدأ التوحيد والدفاع عن الدين، يقول الخياط: إن المعتزلة قد غاظت هذا الماجن بنصبها للملحدين وإفسادها لمذاهبهم، ووضعها الكتب عليهم.

وفي الانتصار إبانة لفكر ثُمامة وآرائه وفلسفته، ورد كل الشبهات التي نقلت عن ابن الراوندي، أهمها:

- العالم فعل الله بطباعه، وهو قول مزعوم ويعد كفرًا، والمطبوع عند ثُمامة الأجسام المعتملة المحدثة.
- والقول بالماهية؛ أن يتمثل الخالق على صورة ما، وهو قول منكر وكفر عند ثُمامة وسائر المعتزلة.
- والقول أن المعارف كلها ضرورية، وأن عوام الدهرية والزنادقة يصيرون يوم القيامة ترابًا، فالآخرة دار ثواب أو عقاب ليس فيها لمن مات طفلًا ولا لمن لا يعرف الله استحقاق، فيَصيرون هم أيضًا يومئذ ترابًا. وهذا كله كذب على ثُمامة.
- وقوله بأن الأفعال المتولدة أفعال لا فاعل لها، رَدُّ القاضي عبد الجبار- فيه نقد لثُمامة – لكنه أزال الشبهة ووضح المقصد، فقول ثُمامة في التولدّ يرتبط بمسألة طال النقاش حولها: «أن الإنسان لو رمى آخر بسهم ثم مات قبل وصول السهم إلى المرمى حيث آلمه أو قتله، فإنّ ذلك لا يمنع كون القتل الحاصل بعد فناء الرامي هو فعل له بعد فنائه».

فذهب ثُمامة إلى أن لا فعل للإنسان إلا الإرادة وأن ما سواها حدث لا من محدث، كنحو ذهاب الحجر عند الدفعة، فذلك يضاف إلى الإنسان على المجاز، ورأيه قريب من رأي الجاحظ، إلّا أن الجاحظ كان أكثر وضوحًا بقوله: ما بعد الإرادة، فهو للإنسان بطبعه وليس باختيار منه.

- ونُسب لثُمامة تحريمه للسبي واسترقاق الإماء، ومن سبى امرأة وألم بها فهو زانٍ وولده ولد زنا، اعتبر رأيه بدعه لمخالفة حكم ملك اليمين وآراء الفقهاء والمجتهدين. وهذا الرأي تم نقله من كتاب البغدادي وقصد به الإساءة لثُمامة،

حيث اعتبره إقرارًا منه بأنه ولد زنا، لأن ثُمامة من الموالي كما يزعم البغدادي وغيره من المتعصبين الأشاعرة.

وقد أجمع العالم اليوم على إلغاء تلك الظاهرة، وإن صح القول بما نُسب إلى ثُمامة فيُحسَب له أنه سبق زمانه حين أكد تناغم الدين مع الكرامة الإنسانية رغم مخالفته للرأي السائد في عصره.

- ونُسب له رأي غريب جاء في لسان الميزان، إذ كان يقول: إن عمل قوم لوط حرام، لكن تفخيذ الصبيان الذكور حلال لأنه لم يأتِ نص بتحريمه[1] وهذا يتناقض مع قوله بتحريم السبي، فكيف يستقيم تحريم الأخف وإباحة الأشدّ!

روايات مُختلقة مُلَفّقة

مصدرها كتب الخصوم والنقل عنها، وترديد شبهاتهم حتى أصبحت من المسلمات المتداولة والمتسالم عليها تاريخيًّا. ولم يكن ثُمامة وحده المقصود، بل المعتزلة جميعهم، ويعدّ كتاب (الفَرق بين الفِرق) المصدر الأساسي الذي نقلت عنه كتب عدة قديمة وحديثة، والكتاب اعتمد كليًا على كتاب (فضيحة المعتزلة) الذي ألفه الملحد (ابن الراوندي) لذلك لا بد من الاحتراس في الأخذ بما كتب عن المعتزلة. جاء في الكتاب[2]:

- واصل بن عطاء رأس المعتزلة وداعيهم إلى بدعتهم بعد معبد الجهني.
- عمرو بن عبيد مولى بني تميم، وكان جده من سبي (كابل) وما ظهرت البدع والضلالات في الأديان إلا من أبناء السبايا.
- أبو هذيل العلّاف مولى لعبد قيس، وفضائحه تكفّره فيها سائر فرق الأمة.

---

(1) لسان الميزان، ج2، ص 399.

(2) الفَرق بين الفِرق، ص 70- 111. منقول بتصرف.

- أبو إسحق ابن سيار النظّام، المعتزلة يوهمون بأنه كان نظّامًا للكلام المنثور، والشعر الموزون وإنما كان ينظم الخرز في سوق البصرة! وخالط الملاحدة والفلاسفة وهشام بن الحكم الرافضي، فأخذ عنه قوله بإبطال الجزء الذي لا يتجزأ والقول بالطفرة.
- معمّر بن عباد السلميّ كان رأسًا للملحدة، وذنبًا للقدرية.
- هشام الفوطي، فضائحه بعد ضلاله بالقدر تترى، منها: أنه حرّم على الناس أن يقولوا حسبنا الله ونعم الوكيل، من جهة تسميته بالوكيل.
- أبو موسى المردار، وكان يقال له (راهب المعتزلة)، وهذا اللقب لائق به إن كان المراد به مأخوذًا من رهبانية النصارى، وكان يزعم أن الناس قادرون على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، وبما هو أفصح منه!
- الجعفران: أحدهما جعفر بن حرب، والآخر جعفر بن مبشّر، وكلاهما للضلالة رأس، وللجهالة أساس.
- الجاحظ: اغترّ الناس بحسن بيانه في كتبه التي لها ترجمة تروق بلا معنى، واسم يهول، ولو عرفوا جهالاته في ضلالاته لاستغفروا الله تعالى من تسميتهم إياه إنسانًا فاضلًا عن أن ينسبوا إليه إحسانًا!
- أبو القاسم البلخي كان حاطب ليل، يدعي في أنواع العلوم على الخصوص والعموم.
- الجُبّائيان: أبو علي الذي أضل أهل (خوزستان) وكانت المعتزلة البصرية في زمانه على مذهبه، وابنه أبو هاشم الذي انفرد بفضائح لم يسبق إليها أحد!

يلاحظ أن البغدادي هو الأكثر حدّة وتعصبًا على المعتزلة، ونقل بامتياز عن (ابن الراوندي) الملحد!

وكان لثُمامة نصيبٌ كبيرٌ من الذم والطعن، جاء في الكتاب أيضًا:

حكى أصحاب التواريخ عن سخافة ثُمامة ومجونه أمورًا عجيبة: منها:

- ما ذكره ابن قتيبة في كتاب (مختلف الحديث) ذكر فيه أن ثُمامة رأى الناس يوم الجمعة يتعادون إلى المسجد الجامع لخوفهم فوت الصلاة، فقال لرفيق له: انظر إلى هؤلاء الحمير والبقر. ثم قال: ماذا صنع ذاك العربي بالناس؟ يعني رسول الله عليه الصلاة والسلام، قال البيهقي[1] غير قوي.
- وحكى الجاحظ في كتاب المضاحك: إن المأمون ركب يومًا فرأى ثُمامة سكران قد وقع في الطين. فقال له: ثُمامة؟! قال: أي والله. قال ألا تستحي؟ قال: لا والله. قال: عليك لعنة الله. قال: تترى، ثم تترى!
- وذكر الجاحظ أيضًا: إن غلام ثُمامة قال يومًا لثُمامة: قم صلِّ، فتغاقل. فقال له: ضاق الوقت فقم وصلّ واسترح. فقال: أنا مستريح إن تركتني!
- كتاب المضاحك للجاحظ الذي يزعم البغدادي أنه نقل عنه، لم يصل إلينا، فهو من المفقودات الكثيرة للجاحظ أو منسوب إليه، ذكره النديم في الفهرست. ولثُمامة عند الجاحظ قَدْرٌ ووقار، فهو رأس طبقته وأستاذه.

مستشار أمن الدولة

ذكر المفكر محمد عابد الجابري: أما ثُمامة فكان قد التحق ببلاط العباسيين منذ زمن المهدي ليبرز على عهد هارون الرشيد، وليصبح من خاصة ابنه وخلفه المأمون، الذي جعل منه مستشاره المكلّف بـ «أمن الدولة» بحسب تعبيرنا المعاصر.

كل ما دوّن في الكتب عن ثُمامة يؤكد مكانته عند الخليفة المأمون، حتى وُصف (كان خصيصًا بالمأمون). والمستشار منصب في غاية الأهمية والخطورة، يفوق موقع الوزير وكافة المواقع الرسمية. رغم أنه لا يملك سلطة تنفيذية، ولا يعد صاحب ولاية أو

(1) لسان الميزان، ج2، ص 399.

قرار، ولا يكون في الواجهة، فهو منصب خفي يسهم في صنع القرار، واختيار رجالات الدولة، وهو الأقرب لرأس السلطة حضورًا وتأثيرًا.

جاء في تذكرة الحفاظ أن شيخ الشام وكبير الدولة الأموية رجاء بن حيوة أشار على الخليفة سليمان بن عبد الملك باستخلاف عمر بن عبد العزيز[1]. وكان ملازمًا لعمر بن عبد العزيز في عهدي الإمارة والخلافة[2].

واستشار زياد رجلًا فقال له: حق المستشار أن يكون ذا عقل وافر واختبار متظاهر، ولا أراني كذلك[3]. واستشار عبد الله بن علي العباسي ابن المقفع فيما كان بينه وبين أخيه الخليفة المنصور فرد عليه ابن المقفع بقوله: لست أقود جيشًا، ولا أتقلد حربًا، ولا أُشير بسفك دم، وعثرة الحرب لا تُستقال وغيري أولى بالمشورة في هذا المكان[4].

جاء في التاج: وعلى هذا النحو كان المأمون أيامه، ويقصد أنه سار على نهج أبيه الرشيد، فكان أشد الملوك بحثًا عن أسرار رعيته، وأكثرهم بها عناية وأحزمهم فيها أمرًا. وكان للمأمون ألف عجوز وسبعمائة، يتفقد بهن أحوال الناس من الأشقياء، ومن يحبه ومن يبغضه، ومن يفسد حرم المسلمين، وكان لا يجلس إلى دار الخلافة حتى تأتيه كلها. وكان يدور ليلًا ونهارًا مستترًا[5]. لذا وجد المأمون في ثُمامة ضالته، فثُمامة لديه علم بأحوال الرجال، ورؤية ثاقبة في حُسن الاختيار.

قدّم ثُمامة جملة من الاستشارات: قال المأمون يا ثُمامة، فأشر علي برجل صالح لما أريد؟ ويقصد الوزارة بعد مقتل الفضل بن سهل الملقب بـ(ذي الرئاستين) ورفض ثُمامة تولي المنصب. فكان الرأي أحمد بن أبي خالد الأحول. وقال المأمون يوما له: إني كنت

---

(1) تذكرة الحفاظ، ج1، ص111.

(2) الأعلام، ج3، ص17.

(3) نهاية الأرب في فنون الأدب، ج6، ص 69.

(4) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، ص 12.

(5) التّاج في أخلاق الملوك، ص 279- 280.

عزمت ألا أستوزر أحدًا بعد ذي الرئاستين، وقد رأيت أن أستوزرك. فغيَّر المأمون قراره اقتناعًا بمشورة ثُمامة.

وفي موضع آخر، قال المأمون لثُمامة: ألا تدلني على رجل من أهل الجزيرة له عقل وبيان ومعرفة يؤدي عني ما أوجهه به إلى نصر بن شبث؟ قال ثُمامة: بلى يا أمير المؤمنين، رجل من بني عامر يقال له جعفر بن محمد، فاقتنع به المأمون وكلفه بالمهمة.

وكان ثُمامة سبب يحيى بن أكثم في قضاء البصرة مرتين، واعترف يحيى بفضل ثُمامة قائلًا: يا أبا معن أنا صنيعتك وابن عمك.

موقع المستشار يتطلب قدرات استثنائية تندر عند الآخرين، و(كاريزما) خاصة تساهم في الإقناع وقوة الحضور، وثقافة واسعة في الفكر والعلم والتعامل. من المؤسف تصوير ثُمامة بالنديم المضحك للخليفة والتنكر لمكانته.

فهو علّامة من كبار أعلام المعتزلة، وضع على رأس الطبقة السابعة، وهو من تلاميذ العلّاف والنظّام وأستاذٌ للجاحظ. وكثرة نوادره وطرائفه تدل على الحس الفكاهي، وروح الدعابة التي تعد هبة من الله، وتستوجب خبرات معرفية، وتجعله قريبًا من الناس له قبول وتأثير وجاذبية.

اختيار الخليفة المأمون له ليس فيه حسابات خاصة، أو استمالة وإرضاء لجماعة أو قبيلة أو مذهب، بل اختيار استند إلى معرفة تامة بفكر وقدرات ثُمامة، فهو صديقه الثقة قبل توليه الخلافة، وهو أحد أهم رؤساء وأعلام المعتزلة، فقد وجد المأمون نفسه منجذبًا إليهم، ولا يستبعد تأثير ثُمامة كما ذكر البغدادي: أن المأمون تلقى على يد ثُمامة مبادئ الاعتزال، فكأنه يقف منه موقف التلميذ من أستاذه.

وأرى سبب قبول ثُمامة بمنصب غير رسمي ورفض المنصب الرسمي (الوزارة)، العلاقة الشخصية القوية مع الخليفة والتوافق الفكري الذي جمعهما، وكان أمل ثُمامة أن يبلغ المأمون الخلافة وقد تحقق، وعُرف ثُمامة بالجرأة وعزّة النفس؛ رغم قوة العلاقة بالخليفة؛ فحين قال له المأمون بعد وشاية مُغرضة: بلغني أنك تَنْتَحِلُني في العامّة، أجابه

ثُمامة: يا أمير المؤمنين ما تلزّمْت بك من قِلة، ولا تعزّزْت بك من ذِلّة، وما بي وحَشْة من الله إلى أحد[1].

وبرّر رفضه للوزارة وخلافة الفضل بن سهل بقوله: (لم أرَ أحدًا تعرض للخدمة والوزارة إلا لم يكن لتسلم حاله، ولا تدوم منزلته). وثُمامة عايش عهد الرشيد والأمين والمأمون ويدرك الواقع السياسي للدولة وكثرة التقلبات وحدّة الصراعات الداخلية نتيجة الطمع في المناصب والمكاسب.

والمعتزلة لا يرون موقعهم الريادي في مجالس الدولة، فأغلبية أعلامهم رفضوا القضاء والوزارة، فعمرو بن عبيد رفيق واصل وشريكه في تأسيس مدرسة الاعتزال رفض كل المناصب في زمن الخليفة المنصور الذي كان يطلب منه الموعظة دائمًا ورده: ارفع علم الحق يتبعك أهله. وجعفر بن مبشِّر رفض عشرة آلاف درهم لتولي القضاء في عهد الخليفة الواثق.

وعيسى المردار (راهب المعتزلة) كان يرى أن مجالس العلم هي مكانهم، وليس مجالس الدولة. ورغم رفض المناصب عرف عن شيوخ المعتزلة الاعتدال في الآراء السياسية، والعلاقات الطيبة مع ولاة الأمر. كان لواصل بن عطاء مؤسس الاعتزال خطبة تاريخية ألقاها في حفل جامع بالعراق بين يدي الوالي عبد الله بن عمر بن عبد العزيز، وعمرو بن عبيد كان صديقًا للمنصور له مكانة وقدر عنده، وللجاحظ علاقة طيبة مع المأمون والمعتصم.

استغل ثُمامة وجوده الدائم في مجلس الخليفة المأمون الذي اشُتهر بعقد المناظرات، فكانت وسيلة مهمة للرد على الخصوم وإبراز الفكر الاعتزالي.

ذكر بشر المريسي[2]: حضرت أنا والمأمون، وثُمامة، ومحمد ابن أبي العباس، وعلي بن الهيثم، فتناظروا في التشيّع، فنَصَر محمد بن أبي العباس الإمامية، ونَصَر على بن الهيثم

(1) فضل الاعتزال، ص 255.

(2) كتاب بغداد، ص 22.

الزيدية وجرى الكلام بينهما إلى أن قال محمد لعلي: يا نبطي ما أنت والكلام؟ قال: فقال المأمون – وكان متكئًا فجلس– الشتم عِيّ، والبذاء لؤم، إنا قد أبحنا الكلام وأظهرنا المقالات، فمن قال بالحق حمدناه، ومن جهل ذلك وقفناه، ومن جهل الأمرين حكمنا فيه بما يجب، فاجعلا بينكما أصلًا فإن الكلام فروع، فإذا افترعتم شيئًا رجعتم إلى الأصول قال: فإنا نقول لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، واذكروا الفرائض والشرائع في الإسلام وتناظروا بعد ذلك.

وقال ثُمامة يومًا للمأمون[1]: إذا وقف العبد يوم القيامة بين يدي الله تعالى، فقال: ما حملك على معصيتي؛ فيقول على مذهب الجبر: يا رب أنت خلقتني كافرًا، وأمرتني بما لم أقدر عليه، وحُلت بيني وبينه، فنهيتني عمّا قضيته عليّ وحملتني عليه، أليس هو صادقًا؟ قال: بلى، قال: فإن الله تعالى يقول: ﴿يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾. أينفعه هذا الصدق؟ فقال بعض الهاشميين: ومن يَدَعه يقول هذا ويحتجُّ به؟ فقال ثُمامة: أليس إذا منعه الكلام والحجّة، يعلم أنه قد منعه من إبانة عُذْره، وأنّه لو تركه لأبان عُذْرَهُ؟ فانقطع.

وقال أبو العتاهية[2] يومًا للمأمون: أنا أقطع ثُمامة، فقال: عليك بشعرك فلست من رجاله، فلما حضر ثُمامة قال أبو العتاهية وقد ترك يده: من حرّك يدي؟ قال: من أمه زانية! قال: يا أمير المؤمنين شتمني، قال ثُمامة: ترك مذهبه يا أمير المؤمنين، فقال له أبو العتاهية: أما كانت لك في الحجّة مندوحة غير السفه؟ فقال له: إن خير الكلام ما جمع الحجة والانتقام.

وجاء[3] رجل من الحشويّة فقال له: دع مذهبك فلقد رأيت فيك رؤيا قبيحة، فذهب بهم إلى بيعة وسألهم: ما الذي ترون في القسّ؟ فذكروا المنامات العجيبة فأقبل على الحشوي وقال: تنصّر!

---

(1) فضل الاعتزال، ص 256- 257.

(2) طبقات المعتزلة، ص 63- 64.

(3) المرجع نفسه، ص 64.

ويرى القاضي عبد الجبار سبب وجود بعض الهزل في كلام ثُمامة: ولمّا توفر في خدمة الخلفاء صار يوجد في كلامه بعض الهزل مما لا تأويل له، ليجعله طريقًا إلى ميلهم إليه، يوصله إلى المعونة في الدِّين.

ثُمامة ومعاوية

انتهى الصراع السياسي بين الأمويين والعباسيين بسقوط الخليفة مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين، وإن كان الخلاف ذا أصلٍ سياسي، فهناك جانب ديني مفادُه أن العباسيين يرون آل البيت هم الأحق بالخلافة بمنطق (الرضا من آل محمد)، وأنهم من نسل العباس بن عبد المطلب عم النبي عليه الصلاة وسلام.

وكان المأمون قد همّ بلعن معاوية (مؤسس الدولة الأموية)، وأن يكتب بذلك كتابًا يقرأ (يوم الدار)[1].

لعن معاوية كان مقترحًا من المأمون، وعدل عنه بعد نصيحة يحيى بن أكثم، واستشارته لثمامة كانت للاستئناس بعد أخذ القرار، قول ثمامة ليس فيه تشجيع للعن معاوية، ولم يتدبر المسألة، بل كان في حالة غضب من جهل الناس، وقصد بذكر القصة[2] للخليفة المأمون ألا يقيم وزنًا لرأي العامة عند اتخاذ بعض القرارات.

ويرى آخرون أن (يحيى وثمامة) سعيا لإرضاء المأمون لا أكثر!

---

(1) أطلق يوم الدار على المدة التي حوصر فيها الخليفة عثمان بن عفان بدءًا من رجوع المصريين إلى المدينة وانتهاء بقتله في داره في المدينة المنورة، وعند الشيعة يوم الدار من الأحاديث النبوية التي وردت في كتب الحديث، في مسألة وصاية الرسول عليه الصلاة والسلام لعلي بن أبي الطالب، واختلفت الروايات وعند أهل السنة أن الرواية لا تصح.

(2) ما حدث معه في شارع الخلد، حين صدّق الناس المحتال وكذّبوا ثُمامة.

الصورة الذهنية المشوّهة

الصورة العقلية التي تتكون في أذهان الناس تكون بحسب المعلومات التي يتم تلقيها، وتصبح لهم واقعًا صادقًا. ساهمت الأعمال الدرامية في الوقت الراهن في خلق صورة ذهنية تفوق كل الروايات والكتب والمصادر، مع غياب التدقيق والتثبت، الأمر الذي نتج عنه صورة تجافي الحقيقة يشوبها التعصب والتزييف. فالالتزام بالحياد والموضوعية في كتابة النصوص التاريخية أمر نادر. يقول المؤرخ الإيطالي (كروتشه)[1]: أما أولئك المؤرخون الذين نصبوا أنفسهم قضاة يدينون هذا ويبرئون ذلك، ويعتقدون أن هذه هي وظيفة التاريخ؛ فإنهم يتصفون بخلوهم من الحاسة التاريخية.

بمحض الصدفة شاهدت مقطعًا حواريًا بين الخليفة هارون الرشيد وثُمامة، شاع بين الناس وانتشر لطرافته وحسن أداء الفنانين (سلوم حداد) في دور الرشيد و(يوسف المقبل) في دور ثُمامة، والمقطع يعود إلى مسلسل تلفزيوني تاريخي ضخم بعنوان (الإمام) يتناول قصة حياة (أحمد بن حنبل) تم إنتاجه عام (2017)، كتب النص (السيناريو) محمد اليساري.

والمقطع لا يتجاوز الدقيقتين، والحوار كان في مجلس الرشيد.

الرشيد يسأل: أنت ثمامة بن أشرس المعتزلي.

ثمامة: بل ثمامة بن أشرس النُميري خادم أمير المؤمنين.

الرشيد: ما تقول في كتاب الله يا نميري.

ثمامة: أقول إنه كلام الله.

الرشيد: أهو مخلوق يا ابن أشرس.

ثمامة: العياذ بالله من مقالة كهذه!

الرشيد غاضبًا: تتعوذ بالله، ألست معتزليًا.

---

(1) في فلسفة التاريخ، ص 91.

ثمامة: لا والحمد الله، ولكن إن رأى أمير المؤمنين أنني معتزلي فأنا معتزلي، رغم أنني لست معتزليًّا.

الرشيد: أوَ تحفظ قوله تعالى: ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾أوَ تنكر اعتزالك الآن إذن!

ثمامة: لو كنت معتزليًّا لأنكرت ذلك يا أمير المؤمنين، فكيف وأنا لست كذلك.

تدخّل وزير الرشيد: لمَ تتعب نفسك يا مولاي مع مراوغٍ يروغ منا كما يروغ الثعلب، دع السياط تجرّ لسانه يا مولاي.

ثمامة: إن كان الأمر عائدًا لسياط وزير أمير المؤمنين؛ فسأعترف بأنني من قتلة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب!

الوزير: أيها المارق.

الرشيد ضاحكًا: على رسلك يا أبا العباس، على رسلك.

الوزير: اعذرني يا مولاي.

الرشيد: فما تقول في رؤية الله في الآخرة يا ثمامة.

ثمامة: أقول إن الناس جميعًا سيرونه حتى بشار بن برد!

الرشيد: مقهقهًا قاتلك الله يا ثمامة!

يقول كاتب العمل الشاعر و(السيناريست) محمد اليساري[1]، من حق الكاتب أن يتناول أي حادثة تاريخية وفق ما يخدم إبداعه من دون أن يكون ملزمًا بالوثيقة التاريخية! ويضيف: يشتمل عمل المؤرخ على تسجيل شامل للوقائع بكل تفاصيلها، بينما يقوم عمل الكاتب الدرامي أساسًا على اختيار لحظة تاريخية ما، وإخضاعها لشروط الدراما، وتكون في خدمة أفكاره الرئيسية للعمل. وبالتالي غالبًا ما يهتك الكاتب الدرامي عفّة التاريخ، أو يخدش تلك النظرة المقدسة عند العرب لتاريخهم.

---

(1) diffah.alaraby.co.uk

وأكد اليساري أن العمل انطلق من روايات دقيقة تشرف عليها مجموعة من الشيوخ، لإظهار صورة صحيحة للإمام أحمد بن حنبل.

حوار الرشيد وثمامة من محض الخيال، لا يستند إلى أي أصل تاريخي، فمصادر التاريخ أشارت إلى اضطراب العلاقة بين الخليفة وثُمامة، فقد تعرّض في عهده لمحنة الحبس الانفرادي بسبب قربه من جعفر بن يحيى (البرمكي)، وإعانة أحمد بن عيسى (العلوي). من المؤسف حقًّا أن يحقق المشهد المزعوم نسبة مشاهدة عالية، وترسم صورة ذهنية مزيفة غير مقبولة. فإظهار الصورة المعتدلة عن الإمام أحمد بن حنبل لا تكون على حساب تشويه صورة مخالفيه. وإن وُجدت روايات تؤكد أن ثمامة أصبح من حاشية الرشيد بعد العفو عنه، إلا أنه لم يكن من ندمائه المُضحكين كابن أبي مريم المدني، والمرتمي!

وفي مقطع آخر يظهر ثمامة مع أصحابه يُناظر الإمام الشافعي حول مسألة خلق القرآن. يبدو أن التباسًا قد وقع عند كاتب النص، فقد يكون المقصود (حفص الفرد)[1] كما ورد في كتاب (مناقب الشافعي)[2] للبيهقي.

والمفارقة أن النص يُظهر ثُمامة متكلّمًا مناظرًا أمام الشافعي، ومُهرّجًا مُضحكًا أمام الخليفة الرشيد!

(1) من أهل مصر، قدم البصرة لا يُعلم له تاريخ ولادة أو وفاة، ذُكر أنه من المُجبّرة وتابع للقاضي ضرار بن عمرو.

(2) مناقب الشافعي، ج3، ص456.

الخاتمة

ففي مستحسنه إن شاء الله ما يشغل عن مستهجنه، والشمس يطمس نورها -ما أحاط من الكواكب بها- وقد قيل: لكلِّ حسناء ذامٌّ.

(أبو علي المرزوقي الأصفهاني)

جاء في مقدمة (الطالع السعيد) لأبي الفضل كمال الدين جعفر بن ثعلب الأدفوي الشافعي: إن التاريخ فنٌّ يحتاج إليه، وتُشدُّ يدُ الضّنانة عليه، إذ به يعرف الخلفُ أحوال السلف، ويتميَّزُ منهم المستحقُّ التَّنقير، ممّن هو أهون من النَّقير وأحقر من الفتيل، ومن رُسِمَ منهم بالجرح ومن رُسِمَ بالتعديل، وما سلكوا من الطرائق، واتّصفوا به من الخلائق، وأبرزوا من الحقائق للخلائق.

وجاء في خاتمة كتاب (معاوية بن أبي سفيان) للعقّاد:

وليست جدوى التاريخ هنا كلمة مدح تنقص أو تزاد، وإنما جدواه أن يصان الذكر عن الابتذال، وهو أشرف ما تملكه الإنسانية من تشريف أبنائها في الحياة وبعد الممات. فلا يباح عرض الإنسانية لكل من يملك طعامًا يملأ به البطون، أو مالًا يملأ به الجيوب، ولا يختلط الحق بالباطل، ثم تذهب الحيلة فيه، وتثوب العقول والضمائر إلى التسليم، ويتساوى الجوهر والطلاء في ميزان الخلود والبقاء.

وذكر عبد الرحمن الحجي مؤرخ الأندلس -الفردوس المفقود- المعاصر: معرفة التاريخ الإسلامي ليس بالأمر الهامشي التجميلي، فهذا التاريخ – إن أُحسن تقديمه – قادر على تحريك قلب ووجدان وهمة المسلم، ولا يحسن تقديمه بحقائقه الموثَّقة الناصعة، إلا من غار في الأعماق ليستخرج درره، وهي كثيرة، تنتظر يد غواصٍ ماهر.

ويرى أحمد محمود صبحي أستاذ الفلسفة: أن التاريخ هو الصورة الفكرية للحضارة ينشرها للناس مقدمًا لهم الحساب عن نشاط الفكر الإنساني في ماضيه عن تراث الآباء والأجداد مُعَبِّرًا عنهم بالقول ﴿هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيهْ﴾.

ويقرر (هَرْنشو) أستاذ التاريخ وصاحب كتاب (علم التاريخ) أن الغرض الذي ندرس من أجله التاريخ ونكتبه هو توضيح الحاضر وإلهامه سبيل الرشاد.

ولفولتير مقولة معبرة: لو سُئلت، أي هؤلاء أعظم: الإسكندر أم قيصر أم تيمورلنك، أم كروميل؟ لأجبت: إن إسحق نيوتن هو أعظمهم جميعًا.

في هذا الكتاب مغامرة حذرة في تأصيل فكر وفلسفة وآراء ومواقف عَلم من فطاحلة المتكلمين، وإماطة اللثام عن أسرار شخصيته المثيرة، وإبراز دوره التاريخي في العهد الذهبي الذي عاصره وعايشه بكل تفاصيله، وكان فيه المرجع والمستشار. ومحاولة جادة في الاجتهاد لإنصافه بعيدًا عن الأهواء المذهبية والفكرية. الكتاب الذي أقدمه اليوم عن (ثُمامة) ولادة جديدة بسيرة أخرى في عالم الحقيقة. راجيًا لقارِئِهِ أن يجد فيه الإثراء والحقيقة.

والله ولي التوفيق

المراجع

1. ابن أبي الحديد، عبد الحميد، شرح نهج البلاغة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، 1959.
2. ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن محمد الجزري الشيباني، الكامل في التاريخ، اعتنى به: أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، عمان، 2004.
3. ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992.
4. ابن العبري، أبو الفرج بن أهرون، تاريخ مختصر الدول، دار الرائد اللبناني، لبنان، 1983.
5. ابن النديم، محمد بن إسحق، الفهرست، تحقيق: رضا تجدّد المازنداري، منقول من دستوره وبخطه، طهران، 1971.
6. ابن تغري بردي، أبو المحاسن جمال الدين بن يوسف، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992.
7. ابن حزم، علي بن أحمد، الفصل في الملل والأهواء والنحل، مكتبة السلام العالمية، القاهرة، 1933.
8. ابن خلدون، ولي الدين عبد الرحمن بن محمد، مقدمة ابن خلدون، تحقيق: عبد الله محمد الدرويش، دار يعرب، دمشق، 2004.
9. ابن طباطبا (ابن الطقطقا)، محمد بن علي، الفَخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار صادر، بيروت.

10. ابن طيفور، أبو الفضل أحمد بن طاهر، كتاب بغداد، تحقيق: محمد زاهد الكوثري، مكتبة نشر الثقافة الإسلامية، 1949.

11. ابن عبد ربه، أحمد بن محمد، العِقد الفريد، تحقيق: مفيد قميحة وعبد المجيد الترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، 1983.

12. ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن، تاريخ مدينة دمشق، تحقيق: محب الدين العَمْروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 1995.

13. ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري، عيون الأخبار، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1928.

14. ابن قيّم الجوزيّة، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر، أحكام أهل الذمة، تحقيق: يوسف البكري وشاكر العاروري، رمادي للنشر، المملكة العربية السعودية، 1997.

15. ابن كثير، عماد الدين إسماعيل، البداية والنهاية، اعتنى به: حسّان عبد المنّان، بيت الأفكار الدولية للنشر، 2014.

16. ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين، لسان العرب، تحقيق: عبد الله الكبير، محمد حسب الله، هاشم الشاذلي، دار المعارف، القاهرة، 1998.

17. ابن نباتة، جمال الدين، سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، مصر، 1964.

18. أبو زهرة، محمد، تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة والعقائد وتاريخ المذاهب الفقهية، دار الفكر العربي، القاهرة، 2009.

19. الأخرس، طلعت، أبو هذيل العلاّف المعتزلي.. آراؤه الكلامية والفلسفية، دار خضر، بيروت، 1994.

20. الأدفوي، أبو الفضل كمال الدين جعفر بن ثعلب، الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد، تحقيق: سعد محمد حسن، طه الحاجري، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، 1966.

21. الإسفراييني، أبو المظفر شاهفور بن طاهر بن محمد، التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين، الناشر مكتبة الخانجي القاهرة؛ مكتبة المثنى بغداد، 1955.

22. الأصفهاني، أبو القاسم حسين بن محمد الراغب، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، تحقيق: إبراهيم زيدان، مطبعة الهلال، مصر، 1902.

23. الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين، مَقَاتل الطّالبِيين، تحقيق: أحمد صقر، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، 1949.

24. الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين، الأغاني، دار الكتب العلمية، بيروت، 2008.

25. الإمام مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القُشَيْري النيسابوري، الجامع الصحيح، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه، دار الكتب العلمية، بيروت، 1991.

26. أمين، أحمد، ضحى الإسلام، مؤسس هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2012.

27. أمين، أحمد، هارون الرشيد، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2012.

28. الأمين، حسن، الرضا والمأمون وولاية العهد وصفحات من التاريخ العباسي، دار الجديد، لبنان، 1995.

29. الأندلسي، أبو القاسم صاعد بن أحمد، طبقات الأمم، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1912.

30. الإيجي، عضد الدين، المواقف في علم الكلام، طبعة بولاق، القاهرة، 1913.

31. البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب، تاريخ مدينة السلام وأخبار محدِثيها وذكر قُطّانها العلماء من غير أهلها وواردیها، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2001.

32. البغدادي، أبو منصور عبد القاهر بن طاهر، الملل والنحل، حققه ألبير نصري نادر، دار المشرق، بيروت، 1986.

33. البغدادي، أبو منصور عبد القاهر بن طاهر، أصول الدين، مطبعة الدولة، إسطنبول، 1928.

34. البغدادي، أبو منصور عبد القاهر بن طاهر، الفَرق بين الفِرق، تحقيق: محمد زاهد الكوثري، ناشر الكتاب عزت العطار الحسيني، 1948.

35. البلخي، القاضي عبد الجبار، الحاكم الجشمي، فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، اكتشفها وحققها: فؤاد سيّد، دار الفارابي، بيروت، 2017.

36. البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين، مناقب الشافعي، تحقيق: أحمد صقر، مكتبة دار التراث، القاهرة، 1970.

37. الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سَوْرة، الجامع الصحيح وهو سنن الترمذي، تحقيق: إبراهيم عطوة عوض، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر.

38. التوحيدي، أبو حيّان، الإمتاع والمؤانسة، تحقيق: أحمد أمين وأحمد الزين، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1942.

39. التوحيدي، أبو حيّان، البصائر والذخائر، تحقيق: وداد القاضي، دار صادر، بيروت، 1984.

40. الجاحظ، عمرو بن بحر، العثمانية، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، 1991.

41. الجاحظ، عمرو بن بحر، البيان والتّبيين، تحقيق: عبد السلام هارون، الناشر مكتبة الخانجي القاهرة، 1998.

42. الجاحظ، عمرو بن بحر، الحيوان، تحقيق: عبد السلام هارون، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، 1965.

43. الجاحظ، عمرو بن بحر، البخلاء، دار التقوى للطبع والنشر، القاهرة، 2017.

44. الجاحظ، عمرو بن بحر، التّاج في أخلاق الملوك، دار الفكر، بيروت 1375هـ؛ دار البحار، بيروت، 1955.

45. الجاحظ، عمرو بن بحر، القول في البغال، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، 1955.

46. الجاحظ، عمرو بن بحر، رسائل الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1964.

47. جمعة، محمد لطفي، تاريخ فلاسفة الإسلام، دار العلم والمعرفة، القاهرة، 2018.

48. الجهشياري، أبو عبد الله محمد، الوزراء والكُتّاب، حققه مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، 1938.

49. الحسن، عبد الله، مناظرات في الإمامة، منشورات دليل ما، قم، إيران، 1909.

50. الحميري، نشوان، الحور العين، مطبعة السعادة، مصر، 1951.

51. الخيّاط، أبو الحسين عبد الرحيم بن محمد، الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد ما قصد به من الكذب على المسلمين والطعن عليهم، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1925.

52. الخيّون، رشيد، مذهب المعتزلة من الكلام إلى الفلسفة، مدارك للنشر، دبي، 2015.

53. الخيون، رشيد، معتزلة البصرة وبغداد، دار الحكمة، لندن، 1997.

54. الدوري، عبد العزيز، العصر العباسي الأول.. دراسة في التاريخ السياسي والإداري والمالي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2006.

55. دي طرازي، فيليب، عصر العرب الذهبي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2014.

56. الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد، تذكرة الحفاظ، دائرة المعارف النظامية، حيدر آباد، 1915.

57. الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء، رتبه واعتنى به: حسان عبد المنّان، بيت الأفكار الدولية، 2004.

58. رفاعي، أحمد زيد، عصر المأمون، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1927.

59. الزركلي، خير الدين، الأعلام قاموس تراجم، دار العلم للملايين، بيروت، 1986.

60. الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر، ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، تحقيق: عبد الأمير مهنا، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، 1992.

61. زيدان، جرجي، العبّاسة أخت الرشيد، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2012.

62. السراج، جعفر بن أحمد حسين القارئ، مصارع العشاق، تحقيق: كرم البستاني، دار صادر، بيروت.

63. السيد، محمد صالح محمد، أبو جعفر الإسكافي وآراؤه الكلامية والفلسفية، دار قباء، القاهرة، 1988.

64. السيد، محمد صالح محمد، عمرو بن عبيد وآراؤه الكلامية، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة، 1985.

65. السيوطي، جلال الدين، تاريخ الخلفاء، راجعه جمال محمود مصطفى، دار الفجر للتراث، القاهرة، 2010.

66. الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم، الملل والنحل، تحقيق: عبد العزيز الوكيل، مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع، القاهرة، 1968.

67. الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم، نهاية الإقدام في علم الكلام، تحقيق: الفريد جيوم، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2009.

68. الشيبي، كامل مصطفى، الصلة بين التصوّف والتشيّع، دار المعارف، القاهرة؛ مطبعة الزهراء، بغداد، 1963.

69. الصبّاريني، حسن محمد، واحة المعتزلة، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، رام الله، 2020.

70. صبحي، أحمد محمود، في فلسفة التاريخ، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، 1975.

71. الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط، تركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، 2000.

72. ضيف، شوقي، العصر العباسي الأول تاريخ الأدب العربي، دار المعارف، القاهرة، 1966.

73. الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الطبري تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، 1966.

74. طرابيشي، جورج، هرطقات عن الديمقراطية والعلمانية والحداثة والممانعة العربية، دار الساقي، بيروت، 2011.

75. العَبادي، أحمد مختار، في التاريخ العباسي والأندلسي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1971.

76. عبد الحميد، عرفان، دراسات في الفِرق والعقائد الإسلامية، مطبعة الإرشاد، بغداد 1967.

77. العبده، محمد، وعبد الحليم، طارق، المعتزلة بين القديم والحديث، دار ابن حزم، بيروت، 1996.

78. عبيد، أحمد عبد الغفار، أدب الفكاهة عند الجاحظ، مكتبة لسان العرب، المنصورة، 1982.

79. عثمان، عبد الكريم، نظرية التكليف.. آراء القاضي عبد الجبار الكلامية، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1971.

80. العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر، فتح الباري بشرح صحيح الإمام البخاري، المطبعة الكبرى الأميرية، مصر، 1883.

81. العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر، لسان الميزان، اعتنى به: سلمان عبد الفتاح أبو غدّة، دار البشائر الإسلامية، بيروت، 2002.

82. العقاد، عباس محمود، معاوية بن أبي سفيان، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2003.

83. علي، محمد كرد، رسائل البلغاء، دار الكتب العربية الكبرى، القاهرة، 1913.

84. العوّا، عادل، المعتزلة والفكر الحرّ، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 1990.

85. الغرناطي، محمد بن محمد بن عاصم، حدائق الأزاهر في مستحسن الأجوبة والمضحكات والحكم والأمثال والحكايات والنوادر، تحقيق: أبو همام عبد اللطيف عبد الحليم، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 2014.

86. فوزي، فاروق عمر، الخلافة العباسية عصر القوة والازدهار، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، رام الله، 2009.

87. القاسمي، جمال الدين، تاريخ الجهمية والمعتزلة، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1979.

88. القاضي عبد الجبار، أبو الحسن بن أحمد الأسد آبادي، الأصول الخمسة، تحقيق: فيصل بدير عون، لجنة التأليف والتعريب والنشر، الكويت، 1998.

89. القاضي عبد الجبار، أبو الحسن بن أحمد الأسد آبادي، المجموع في المحيط بالتكليف صححه ونشره جين يوسف، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 2019.

90. القلقشندي، أبو العباس أحمد، صبح الأعشى، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1916.

91. القيرواني، إبراهيم بن علي الحصري، جمع الجواهر في المُلح والنوادر، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، 1953.

92. الكتبي، جمال الدين محمد بن إبراهيم الوطواط، غُرر الخصائص الواضحة وعُرر النقائص الفاضحة، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 2008.

93. كوبرسون، مايكل، فن السيرة في العربية.. عصر المأمون نموذجًا، ترجمة محمود محمد مكي، مراجعة وتقديم جمال عبد الناصر، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2005.

94. مبارك، زكي، التصوّف الإسلامي في الأدب والأخلاق، مطبعة الرسالة، القاهرة، 1938.

95. المرتضى، أحمد بن يحيى، طبقات المعتزلة، دار المنتظر، بيروت، 1988.

96. المرتضى، أحمد بن يحيى، المنية والأمل في شرح كتاب الملل والنحل، دار المعارف النظامية، حيدر آباد، 1898.

97. المرتضى، أحمد بن يحيى، القلائد في تصحيح العقائد، تحقيق: ألبير نصري نادر، دار المشرق، بيروت، 1985.

98. المقدسي، المطهر بن طاهر، البدء والتاريخ، مكتبة المثنى بغداد؛ مؤسسة الخانجي مصر، 1899.

99. المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، مطبعة النيل، مصر، 1908.

100. الملطي، أبو الحسين محمد بن أحمد، التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع، المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، بيروت، 2009.

101. نادر، ألبير نصري، فلسفة المعتزلة فلاسفة الإسلام الأسبقين، مطبعة الرابطة، بغداد، 1951.

102. النوبختي، الحسن بن موسى، فِرق الشيعة، منشورات الرِّضا، بيروت، 2012.

103. النّسفي، أبو المعين ميمون، تبصرة الأدلة في أصول الدين، تحقيق: محمد الأنور حامد عيسى، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، 2011.

104. النَمرِي، أبو عمر يوسف بن عبد الله القرطبي، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، صححه وخرّج أحاديثه عادل مرشد، دار الأعلام، الأردن، 2002.

105. النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: نجيب فواز وحكمت فواز، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004.

106. النيسابوري، أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب، عقلاء المجانين، تحقيق: عمر الأسعد، دار النفائس، بيروت، 1987.

107. النيسابوري، أبو رشيد سعيد بن محمد بن سعيد، المسائل في الخلاف بين البصريين والبغداديين، تحقيق: معن زيادة ورضوان السيد، معهد الإنماء العربي، ليبيا، 1979.

108. النيسابوري، أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي، من غاب عنه المطرب، المطبعة الأدبية، بيروت، 1891.

109. هارون، عبد السلام محمد، كُنَّاشَة النَّوادر، دار الطلائع للنشر والتوزيع، القاهرة، 1984.

110. هدّاره، محمد مصطفى، المأمون الخليفة العالم، الدار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، 1966.

111. هرنشو، علم التاريخ، ترجمة عبد الحميد العبادي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، مصر، 1937.

112. الهيتمي، أحمد بن محمد بن حجر، كفّ الرّعاع عن محرمات اللهو والسماع، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 1986.

113. اليعقوبي، أحمد بن إسحق، تاريخ اليعقوبي، مطبعة الغري، النجف، 1939.

مكتبة
t.me/soramnqraa

فهرس المحتويات

بين يديّ الكتاب 7

السيرة الشخصية 13

أصله ونسبه 15

مما قيل عنه 15

تصانيفه 19

وفاته 19

الآراء الكلامية 23

الآراء الكلامية لثُمامة 30

1. خلق العالم 30

2. الماهية 31

3. المعارف كلها ضرورية 32

4. التولّد 35

5. تفضيل الإمام علي 38

6. تحريم السبي واسترقاق الإماء 43

في بلاط الخلافة 45

العصر العربي الذهبي 47

مع الخليفة هارون الرشيد (149- 193هـ/ 766- 809م) 48

اتصال ثُمامة بالخليفة الرشيد 50

حبس ثُمامة 50

مع الخليفة عبد الله المأمون (170هـ- 218هـ/ 786م- 833م) 56

اتصال ثمامة بالخليفة المأمون 61

رفض الوزارة..... 62
تقديم الاستشارة 63
من مسامرات الخليفة المأمون وثُمامة..... 68
ولاية عهد المأمون للإمام الرضا 72
نوادره..... 75
مقتطفات من نوادر ثُمامة..... 78
في كتاب الحيوان للجاحظ..... 78
في كتاب البُخلاء للجاحظ 80
في كتاب القول في البغال للجاحظ..... 81
في كتاب تاريخ مدينة السلام للخطيب البغدادي 82
في العِقْد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي..... 83
في عيون الأخبار لابن قتيبة 83
في جمع الجواهر في المُلح والنوادر لأبي إسحاق القيرواني..... 84
في كتاب بغداد لابن طِيفور..... 85
في غُرر الخصائص الواضحة وعُرر النقائص الفاضحة. لأبي إسحق الكتبي/ الوطواط 86
في عقلاء المجانين لأبي القاسم ابن حبيب..... 86
في كتاب مصارعُ العُشّاق لأبي محمد السرّاج القارئ 87
في حدائق الأزاهر في مستحسن الأجوبة والمضحكات والحكم والأمثال والحكايات والنوادر
للقاضي أبي بكر الغرناطي 88
في كتاب الأغاني للأصفهاني..... 88
في كتاب التصوّف الإسلامي في الأدب والأخلاق لزكي مبارك..... 88

شبهات وردود 91
أصله 93
محنة خلق القرآن في عهد المأمون، وسعيه إلى الخليفة الواثق بأحمد بن نصر 94
الثُمامية 95
فكره وآراؤه 95
روايات مُخْتَلقة مُلَفّقة 97
مستشار أمن الدولة 99
ثُمامة ومعاوية 104
الصورة الذهنية المشوّهة 105
الخاتمة 109
المراجع 113

ثمامة أمام محكمة التاريخ

د. حسن الصباريني

في هذا الكتاب دراسةٌ لسيرة ثُمامة بن أشرس، الشخصيّة والسياسيّة والفكريّة، تُعرَض بتسلسل منهجيٍّ وتتناول أصلَه ونسبَه، وأهمَّ ما قيل عنه من قِبل كبار الأعلام، وما توفَّر من شِعره الذي ارتبط بحوادث تاريخيّة، وعناوينَ تصانيفه التي لم تصلْ إلينا. ثمَّ تنقض ما ذكره البغداديّ وابن الجوزيّ عن حادثة وفاته، وتبيّن ضعف روايتها.

ويستعرض الكتاب فكر ثُمامة، وآراءه الكلاميَّة والفلسفيَّة التي دار حولها جدل كبير، ويتوسَّع في حياته السياسيَّة ووجوده في بلاط الخلافة، واتِّصاله بالخلفاء، وعلاقته المضطربة بالخليفة هارون الرّشيد، ودوره التاريخيّ الهام في عهد المأمون. ويطوف بنوادره التي ذكرها الجاحظ وتناثرت في كتب الطَّرائف والمُلح واسعة الانتشار في تراثِنا، ولعلَّ الكثير منها نُسبَ لثُمامة زورًا، رغم تمتّعه بروح الدُّعابة وامتلاكه حسَّ الفكاهة.

وأخيرًا، يتحدَّث الكتاب عن الشُّبهات التي لازمت ثُمامة، ويردُّها بالتَّحليل والأدلّة.

telegram @soramnqraa

789923 134863

القدس عربيّة

الآن ناشرون وموزعون

الأردن، عمّان، شارع الملكة رانيا، مجمع المفلح التجاري (87)، ط1

Email: alaan.publish@gmail.com

alaan_publishing.jo

alaan.publishing